رصاصة الرحمة

مجموعة قصصية

تأليف

نصر سليمان

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

اسم الكتاب: رصاصة الرحمة
رقم الإيداع: ٣٥٠٧ / ٢٠١٤
تدمك: ٩ - ٧٩٥١ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١٤,٢٥ / ٢٠,٥ سم
عدد الصفحات: ١٢٤ صفحة
القاهرة: الطبعة: الأولى ٢٠١٤

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهـــــداء

إلى النفس البشرية التى تملكت ذات المشاعر والأحاسيس.. وتفاوتت درجاتها من إنسان لآخر.. فهو تملك كيفاً لا كمًّا.. وبقيت عليها محاولة ضبط أوتارها.. كمن يعزف مقطوعة موسيقية.. يضيف إليها.. ويحذف..ليحافظ على إيقاعها.. حتى تنسجم نغماتها وتنساب مع اللحن الإنسانى..لإبداع سيمفونية كونية رائعة.

مقدمة

رصاصة الرحمة.. مجموعة قصصية تضمنت فى مجموعها خمس قصص.. الأولى منها قصة طويلة تتكون من خمسة فصول وهى

قصة بداية ونهاية.. وقد استوحيت أحداثها من واقع الحياة.. وعايشت أبطالها وتفاعلت مع مجرياتها.. ووقفت طويلا أمام بعض تفاصيلها لألتقط الأنفاس..فقد تلاحقت بأشخاصها مصائب القدر.. وضربت سفينتهم أمواج عاتية.. وتعالت أناتهم كأنين الرياح فى بحر الظلمات.

وقد اجتهدت أن أضيف إلى قصتنا شطحات من الخيال لأضفى على أحداثها المزيد من الثراء.. غير أن الخيال عجز عن تجاوز الواقع... لذلك أزحت هذا الفكر عن خاطرى.. وعمدت على سرد الأحداث بنظرة شاهد يروى واقعا أغرب من الخيال.

والقصص الأربع الأخرى.. قصص قصيرة.. استلهمت مادتها من أرض الواقع.. وأفضت عليها بعضاً من خيال الكاتب.. وحاولت أن أخوض فى أغوار النفس البشرية لأبطالها مع اختلاف ثقافاتهم وطبيعة حياتهم.. غير أنى أدركت أنى أبحر فى بحر بلا قرار.. وأن نفوسنا ما هى إلا دوامات قد تأخذنا للقاع حينا.. وتطفو بنا حينا آخر.

الجزء الأول

بداية بلا نهاية

الفصل الأول

كنت قابعا فى شـرفتى فى ليلة شـتوية نسـماتها باردة.. وزخات مطر تضرب حولى سـياجا يزيد من وحدتى.. أرتشـف قهوتى.. وأنفث دخان سـجائرى.. تدثرنى ثياب صوفية.. دفئها يسـرى فى أوصالى.. يدغدغ إحساسـى ومشاعرى.. وقشعريرة تدب فى جسدى.. ونشوة تثير أشجانى.. تجتاحنى وتهز أركانى.. توقظ قلبى من غفوته.. وتبعث فى نفسى الحياة.

أقلب بصرى فى سماء تحجبها سحب سوداء.. يتخللها وميض برقٍ يخطف الأبصار.. وهزيم رعد يرجف الأوصال.. و قمر ينساب متسللا.. بازغا بين الظلمات.. يلفظ أنفاسـه تحت وطأة غيم الشتاء.. يشع ضوءه على اسـتحياء.. ككهل ذهب صباه.. فتشبث بأحلامه.. فانتفض يجدد شبابه ويزيح عن كاهله ثقل أيامه.

أتأمل دخان سجائرى.. يرسم فى الأفق لوحة تهتز إثر موجاته..تتكامل معالمها وسـرعان ما تتلاشى.. تتلوها موجات تنقش صوراً تترنح وتتداخل.. وتتسـارع أنفاسـى تبث دخاناً يتصاعد يزيح عن كاهلى حملا وحمما يضيق بها صدرى.. وسرعان ما ينقشع مختفيا وكأنه طائر أطلق سراحه من محبسه.

تغيب معالمى وتلتهمها سـحابة دخان تلفنى.. يقبع «أبو الهول» فى مجلسه.. شارد الذهن.. أتأمل عهدا مضى.. وحاضرا بين يدى.

انتفاضة قلب تنتشلنى من زمن مضى.. وأيام خبا بريقها.. وتلقى بى فـى كتاب حياتى.. أقلب صفحاته.. أتأمل سـنين من عمرى تجاوزت

الخمسين.. أتشبث بقطار حياتي.. أدرك بعض محطاته.. قبل أن يلفظني وينهي رحلته.

عصيان وتمرد.. وإزالة صدأ سنين.. تنطلق الروح جامحة.. شيطان «علاء الدين».. كسرت راية بيضاء.. ونزعت من قلبي فتيلاً.. تتسارع دقاته «قنبلة».. قابلة للتفجير .

وزخات مطر على وريقات شجر أضناها خريف.. تزيح غبارها.. وتقبل شمسا تبعث حياتها.

أزحت عن كاهلي غيوم شتاء تثقلني.. وغطاء يحجبني عن عالم حي زاخر حولي.. ونفضت أفكارا خيم ظلالها على عقلي.. تسرى سمومها تصيب قلبي.

ركنت للاستسلام وتيبست أوصالي.. ودرت في فلك الأيام تلفني حتى انزويت.. تركت ربيعا خلفي وسارعت الخطى لليالي شتاء باردة.. كادت تودى بي وتقذفني خارج زماني ومكاني.

تسارعت دقات قلبي.. ودفء يسرى في جسدى.. وتمرد نفس تنتفض.. وحياة تدب في روحي.

لحظة بعث كسرت قيودي.. ونزعت أغلالي وأطلقت ماردا داخلي.. قيد زمنا.. وأوصدت أبوابه.. ثار محطما جدرانه وانطلق من محبسه غير عابئ نداءاتي.. محررا ما تبقى من قلب نابض ونفس تواقة وروح وثابة.

ويتمرد داخلي الإنسان..ينزع ملابس أثقلتني.. ويطفئ سجائر غيبتني.. ينقشع دخانها.. تتجلى ملامحي.. وسماء تصفو يسطع قمرها.

أفقت أبحث عن ذاتي حياتي.. حب أفتقده ماء أروى به زرعا جفت جذوره وذبلت أوراقه.. أتشبث بقطار مجرى وأحاول أسرع خطواتي.

أسـرعت أسـتدعى الحقيقة من عالم الخيـال.. وأتواصل مع أفكار وأشخاص تتوارى خلف شاشات الحاسوب.. ربما أدرك ونيس وحدتى.. وجليس صحبتى وأجد منشـدى وغايتـى.. وكان للقدر تدابيره وقادنى إلى موعـد كنت قد هيأت نفسـى لاسـتقبال موجاتـه المتدفقة وأحداثه المتلاحقـة.. وحيـاة زاخرة بدأت منذ اللحظـة الأولى التى التقيت فيها ناريمان فى محادثة عبر شاشـة الحاسـوب.. اسـتمرت دقائق معدودة كانت «قبلة حياة» أنعشت قلبى وأيقظت مشاعرى.

فقد تعارفنا وتلاقت أرواحنا وانجذب كلانا للآخر.. وتسارعت دقات قلوبنا.. وتفتحت حواسنا.. وربط الحب سريعا بين قلبينا.. وكأنه ينبوع مـاء يروى أرضاً جرداء.. فتنطلق بذورها خضراء يانعة.. وتتفتح أزهارها فيفوح عطرها.

دامت لقاءاتنا.. واستمرت أحاديثنا.. تجاذبنا معا تفاصيل حياتنا.. تشاركنا خطب أيامنا..تباكينا.. تضاحكنا.. حلمنا.. وحلقت آمالنا.

ومـرت الأيـام سـريعة.. تقربنا.. توحدنـا.. تجمع بـين قلبينا.. تعودتهـا.. اعتـدت ضحكاتها..أدمنت مناجاتها.. آنسـت وجودها.. قدست مواعيدها.. تعبدت فى محرابها.

تدفقت مشـاعرنا.. تآلفت أرواحنا..تعانقت نفوسنا.. ورسول الحب والشوق يطوف بيننا.

حبيبتى فى ريعان شبابها وربيع عمرها.. وتسكن فى بلد عربى بعيد عن بلدنا ومسافات طويلة تفصل بيننا.. تتخللها بحار وأنهار.. وصحراء شاسعة وجبال شامخة.. دارها عن عينى بعيدة..وهى فى قلبى قريبة.

وسريعا تطورت علاقتنا وتوطدت صداقتنا.. وأدركنا أننا تعارفنا وتلاقينا لنكمل معا رحلتنا ونتوج معاً حبنا.. ونقبض بأيدينا سعادتنا.. فرحنا.. وشكرنا قدرا جمع بيننا.. وبارك لقاءنا.

وشرعنا نخطط لأيامنا.. ونرسم واقع حياتنا.. ونذلل عقبات فى طريقنا.. ونفند مشاكل تعترضنا.

وتغلبنا على صعاب كادت تطيح بأحلامنا.. واستطعنا أن نمهد لحياتنا.. وعزمنا على استكمال مشوارنا.. وحب يجمع بيننا.. يتوجه زواج يحقق حلمنا.

وعكفنا نضع اللمسات الأخيرة للوصول بسفينتنا إلى مرساها.. وتحقيق أمانينا وغاياتنا المنشودة.

وفى خطوة مفاجئة قررت ناريمان زيارة بلدنا فى رحلة قصيرة تتعرف خلالها على ثقافاتنا.. وعاداتنا.. وتقاليدنا.. وأيام تجمعنا معاً.. نعيش واقعا حلمنا به كثيرا.. ولقاء يجمعنا.. تتشابك أيدينا.. وتتعانق أعيننا.

سعدت بقرارها.. وانتظرت حضورها.. وعددنا الأيام.. واحتسبنا الساعات.. وأعددنا أنفسنا للقاء حلم وحياة.

أردنا.. وأرادت الأقدار.. وكان لها ما أرادت.. فقد انحرفت بنا عن مسارنا.. وبدلت أمورنا.. وأطفأت بهجة نفوسنا.. وجعلت الأحزان رفيق دربنا.

أجتر ذكرياتى ويكاد يقتلنى الندم أنْ شجعتها يوما على قرار سفرها.. ولكن ماذا يفيد الندم مع تصاريف القدر؟؟

أرادت ناريمـــان أن ترتـــب زيارة إلى مصر حتى تقف على معالم وطننا وطبيعة شــعبنا ونتناقش معاً فـــى أمور حياتنا ومســـتقبل علاقتنا وأيامنا القادمـــة.. وبقي تحديد موعد رحلتها قبل حلـــول امتحاناتها في عامها الأخير بكلية الطب التى تدرس بها حيث لم يتبق ســـوى شهرين أو أقل على حصولها على شهادتها وإقامة حفل تخرج تتوج به حياتها الدراسية.

ناريمـــان من عائلـــة طبية.. يمتهن كثـــير من أفرادهـــا مهنة الطب بتخصصاتـــه المختلفـــة ..ولم يشـــذ عـــن العمل في هذا المجال ســـوى «ياســـين» شـــقيقها الأكبر الذى تولى أمرها بعد وفاة والديها.. فقد فضل دراســـة القانون و تدرج في ســـلك القضاء حتى وصل أعلى مراتبه.. ثم كلف بالعمل محافظا لعاصمة بلدهم التى يعيشون بها.

عكفت ناريمان على إعـــداد برنامج لزيارتها ووضعت على أولوياتها التعرف على بعـــض أفراد عائلتى اللذين تعرفت عليهم..وتبادلت معهم بعض المكالمات التليفونية وباركوا خطواتنا.

وقـــد لاقت فكرة ســـفرها ترحاباً من جميع عائلتها وخاصة شـــقيقاتها.. وقليل من أفراد عائلتها ممن تثق بهم وتأتمنهم على أسرارها ويعلمون بعلاقتنا ويعرفـــون قصد رحلتها الحقيقـــي.. وأيضا ممن ليس لديهم علم بهذه العلاقة ويظنونها رحلة عادية تماثل رحلاتها الكثيرة حول العالم للتنزه واكتســـاب المعرفـــة.. حيث اعتادت ناريمان الســـفر وزيارة البلـــدان المختلفة.. وتجيد بجانب لغتها العربية عدة لغات مختلفة منها الفرنسية التى تتحدثها بطلاقة تأثرا بفترة الاحتلال الفرنســـى لبلدهم الذى استمر ردحا من الزمن كان كفيلا بصبغ ثقافتهم بصبغة أهل بلد الاحتلال والتحدث بلغتهم والتأثر بثقافتهم.

ولم يتبق سـوى تحديد موعد وصولها مصر ذلك اليوم الذى انتظرناه طويلا.. وعبرت ناريمان عن سـعادتها وفرحتها بهـذا اللقاء المرتقب.. الذى تعده بداية لحياة جديدة ومرحلة تختلف عن سابق حياتها.

تناقشنا كثيرا حول خططنا لهذه الرحلة.. وعمدنا وضع برنامج يومى يتيح لنا الاسـتغلال الأمثل لهذه الأجازة القصيرة التى لن تتجاوز سبعة أيـام.. حاولنا أن نجعل منها حلما يحلق بنـا فى سماء الواقع.. وأملا يدفع بنا إلى آفاق المستقبل.

رسمنا معاً تفاصيل يومياتنا فى مصر وزيارتنا لمعالمها السياحية..ومزاراتها الثقافية.. وأخذنا ندون كل ما يطرأ لنا من أفكار تضيف لهذه الزيارة بعدا من البهجة والسـعادة.. وتجاذبنا ضحكات ونظرات ذات مغزى.. وحلقنا سويا فى عالم من الأحلام والآمال تتوق لها نفوسنا وأرواحنا.

وجـاء اليوم الموعود فى اتصـال هاتفى من ناريمان تخبرنى فيه أنها فى طريقها لمكتب السـياحة لحجز رحلتها المرتقبة وسوف توافينى بعد برهـة من الوقت بتحديد موعد سـفرها.. وحمل لى صوتها فرحة عارمة وسـعادة غامرة.. تخللـه كلمات رقيقة عبرت بها عـن حبها وحنينها وشوقها إلى رؤيتى.

سـعدت بمكالمتهـا وبادلتها فرحـا وحبا.. وتواعدنـا على محادثة تخبرنى موعد سـفرها.. شـرعت أتأهب لحضورها وأسـتعد لاستقبالها ولقائها وتحقيق الحلم الذى طال انتظاره.. وها قد قارب أن يصير واقعا.

شـغلت فكرى ببعض أمور حياتى وانتظرت سماع مكالمتها لتخبرنى بموعد رحلتها.. ومضت سـاعة وسـاعات ولم أسمـع صوتها.. انتابنى

خوف وقلق وألمت بى بعض الهواجس التى كدرت صفوى.. وحاولت أن ألتمس لها الأعذار.. وإن كنت قد حملت لها بعض اللوم أن تركتنى نهبا للهواجس والظنون.. ولم تطمئنى بمكالمة تزيح حمل صدرى..ثم سلمت أمرى وحاولت أن أتغلب على هواجسى وظنونى وخوف بات يتملكنى وأسئلة كثيرة تراودنى.

مضى يوم وأنا على هذه الحال لا أجد ردا على اتصالاتى.. ولا أسمع خبرا يثلج صدرى.. زاد خوفي واشتد قلقى.. فجوالها دائما مغلق.. وغائبة عن موقع التواصل الاجتماعى الذى أعتدنا أن نلتقى ونتكلم ونتحاور ونبث أشواقنا ونتبادل أحاسيسنا معا من خلال صفحتنا التى شهدت ميلاد قصة حبنا.

وبينما أنا غارق فى أفكارى وتساؤلاتى تلقيت مكالمة خارجية على جوالى.. انتبهت لها بكل حواسي.. ورقص قلبى فرحا.. فقد جاء الغيث وهاهي ناريمان تهاتفنى.. ومكالمة تحمل بشرى وتبدد خوفي وقلقي.. وبكل حب وشوق أسرعت أجيبها ودقات قلبى تسابقني وكلى آذان تحتضن كلماتها.غير أنى فوجئت أن التى تحادثنى شقيقتها ليلى.. وصرخات تسبق كلماتها وبكاء ونحيب يحشرج صوتها.. ويتخلل اسم ناريمان حديثها.

أدركت من أول وهلة أن مصيبة ألمت بها.. وأمراً جللاً قد أصابها.. فزعت أستفسر عن خطبها وأتساءل عما حدث لها ؟.

تسارعت أنفاسها بكلمات مبعثرة كأنها جمرات تحرق قلبى.. فقد علمت من حديثها أن ناريمان وقعت ضحية حادث مروع نتج عن تصادم

حافلة مسـارعة بسـيارتها فى أثناء قيادتها وتوجهها لشركة السياحة لإتمـام حجز رحلتهـا.. وأن الحادث أصابها إصابـة بالغة وغيبها عن العـالم فى غيبوبة عميقة أرقدتها بين الحيـاة والموت لاتدرى من أمرها شـيئاً.. وصمت مهيـب يخيم على وجوه أطبائها.. ودمع ينسـاب من أعينهم..بعدما بذلوا محاولاتهم لإنقاذها.. ولا مجيب عن أسـئلة أهلها الحائرة..ولسان حالهم يطلب الدعاء لها أن يلطف الله بها.

❑❑❑

الفصل الثانى

كلمــات أطلقتهــا ليلى.. رصاصــات أصابت قلبـــى.. لم تجُلْ يوما بخاطرى.. ولم تصادف أسوأ ظنونى.. صدمنى بكاؤها ونحيبها..ورعشة فـــى صوتها المتخم بالأحـــزان والآلام..لم أدرك الحدث بقدره.. فقد فاق قدراتـــى.. ولم أعِ حجم الكارثة وأبعادها.. وآثر عقلى الهروب والانزواء وغاب عن مواجهَة الواقع المرير الذى ساقه القدر.

ناريمان حبيبتى التى انتظرت سماع صوتها لتنقل لى بشـــرى ســارة تســعدنى وأطرب لها.. غائبة عن عالمنا بعد أن ســقطت ضحية حادث مروع خلف قتلى وجرحى وكادت تفقد فيه حياتها.. هامدة.. تقاوم موتا يجذبها.. وتتشبث بحياة تتسرب من بين يديها.

تلقفت خطبها.. واشتعل إحساسى وتفجرت مشاعرى.. وانهمر على إثــره دمعى.. غزيرا متدفقا.. يلهب وجهى.. كســيل حارق يلفحنى.. ينتشلنى من ذهول يتملكنى.. وأدرك واقعا صار قدرى.. ويثور بركان فى قلبى.. يقذف حمما تمزق أحشــائى.. وتهتز الصور فى عينى.. وأترنح جسدا متهالكاً أنهكته أحزانه وصرعه القدر.

أيقنــت أن مــن المصائب ما يفوق قدراتنـــا.. وإن تعاظمت أحزاننا فهى ضئيلة فى محرابها.. وبلاغة كلماتنا وإن تجلت لا تفيها جللها..وأن للأقدار قسوة تئن منها الجبال.. وتحطم قلوب الرجال.. ويشيب من هولها الولدان.

أدركــت أن الواقع قد تغير.. وأن حياتى قلبت رأســا على عقب.. وخرجت الأمور عن ســيرها الذى قدرناه.. وأصبح حتما علىَّ أن أتقبل الوضع الراهن.. وأتفاعل مع معطياته.

عكفت على مداومة الاتصال مع ليلى للوقوف على أحدث المستجدات ومتابعـة الحالة الصحية التى آلت إليها ناريمان..وحاولت أن أدرأ عن نفسي إحســاس فراقها الذى بات يلازمنى ويسيطر على فكرى.. وكان يخالجنــى قبل كل محادثة إحســاس رجفة تجتاح جســدى.. وقبضة تعصر قلبى.. فقد كنت أتوقع الأســوأ دائما.. وأخشى فى كل مكالمة أن أسمع نعيها.. فقد أدركت من متابعتى لحالتها الصحية مدى خطورتها ودقتها.. وأيقنت أن علاجها لن يكون سريعا..وشفاءها ليس أكيداً.

ظلت ناريمان بالعناية المركزة فى المستشفى الجامعى الذى طالما تلقت محاضراتها فى أقســامه المختلفة.. وسهرت على مدار سنوات دراستها ليــالى طوالاً تطيب وتعالج مرضاه الكثيريــن.. وها هى ترقد اليوم غائبة عن عالمنا.. ومرضاها يبكونها وتنساب دموعهم حزنا عليها.. فقد ألفتهم وألفوها وأحبتهم وأحبوها و شــاركتهم آمالهم وأحلامهم.. والكثير منهم يعدونهــا أختا لهم وصديقة غالية علــى قلوبهم.. وهاهم اليوم يبادلونها مشاعر صادقة.. ودعوات حارة.. وأساتذتها يلتفون حولها لبذل جهدهم فى محاولات يائسة لانتزاعها من براثن الموت.

تمــر الأيام بطيئة.. وهواجس ومخاوف تزيد من إحساســنا برتابتها مع كل لحظة تمر على ناريمان وهى غائبة عن وعيها.. بعد أن أصبحت حياتهــا معقــودة على الإفاقة مــن غيبوبتها.. وباتت أنفاســها مرهونة بمعــدات وأجهــزة طبية عالقة بجســدها تكاد تخفى معالمهــا.. ونكتم أنفاســنا ترقبــا مع أنفاســها المتقطعة.. داعــين الله أن تتجاوز محنتها وتسترد عافيتها.

تتعاقــب الأيــام ويمضى أكثر من أســبوعين وناريمــان مازالت على حالتهــا والغيبوبــة تحجبها عــن عالمنا.. وبدأ اليــأس يدب فى نفوس أطبائهــا.. وتملكتهم الحيرة والخوف على حياتها.. وتباحثوا كثيرا فى أمرهــا.. ثم أجمعوا أخيرا على ضــرورة علاجها خارج البلاد.. ومتابعة حالتهــا فى أحد مستشــفيات الدول الأوربية المتخصصــة حيث تتوافر الإمكانيات الأحدث والكفاءات الأكثر خبرة.. ولكن ســرعان ما تراجعوا عن قرارهم خوفا على حياتها وعدم مقدرتها على تحمل مشــقة الســفر وتبعات رحلة العلاج.. ولم يتبق لنا فى هذه الأجواء اليائســة إلا انتظار رحمة الله.. عسى أن تكون قريبة.

بينمــا أتقوقع داخل ذاتى غارقا فــى أحزان تعتصرنى.. ويجتاحنى يــأس ورجــاء.. طــاف خاطر فــى ذهنــى.. وتملكنى شــعور خفى أن أهاتف ناريمان.. عــل صوتى يصل وجدانها..فــإن للحب قوة وحياة. وعسى أن تكون كلماتى حافزا ودافعا لها تنتشلها من غياهب الظلمات.

وشــرعت أضع خاطرى حيــز التنفيذ.. وناجيت ناريمان بأشــواقى وأشجانى.. وذكرتها بأيامنا وأحلامنا.. حادثتها والدمع يسابق كلماتى.. وابتهلت إليها أن تزيح عنها شبح الموت وتتشبث بالحياة.. وتعود إلينا بسمة تضىء أيامنا وليالينا.

تعبــدت فــى محــراب حبها.. عاكفــا أناجيهــا.. أبثها أشــواقى ورجائى..وأشــعر بحرارة أنفاســها مع آلاف الأميال التى تفصل بيننا.. ويحدونــى الأمل أن تســتجيب لندائى.. انتبهــت فجأة على صرخات فرح..وابتهالات شــكر وحمد لله.. وضجيج من السعادة تمتزج معالمه..

ويصـل إلى سمعـى القليل من كلمات المحيطين بها التى اسـتطعت أن أتبين معانيها.. وكأنها بلسم طيب الجراح وأثلج صدرى وجعلت الحياة تسرى فى جسدى.

فقد «انسابت دموع ناريمان وتحاول جاهدة أن تتمتم ببعض الكلمات «......لحظـة فرح أزاحت عن قلوبنا أحزان أيـام طويلة.. حمدنا الله وسـجدنا شكرا أن اسـتجاب لدعواتنا.. وحقق أمنياتنا.. وها هى بداية الغيث و «قبلة الحياة» تعود بناريمان من عالم المجهول إلى واقع الحياة.. وترقص قلوبنا طربا فقد أدبر شبح الموت وأقبلت بهجة الحياة.

❑❑❑

استطاعت ناريمان أن تتشبث بالحياة وتتغلب عاى غيبوبة استمرت معها تسـعة عشـر يوما كادت توردها الهلاك وتسلبها حياتها.. ورويدا رويـدا بدأت تتعافى وتسـترد صحتهـا وتعى الواقع مـن حولها.. فقد استعادت وعيها واستردت ذاكرتها.. ولم يعكر صفوها سوى بعض الآثار الجانبية التى تؤلم رأسـها وتصاحب الشـفاء من غيبوبـة قاتلة.. وآلام كدمات حادث موت أصابت جسدها.

شـكرنا الله أن منَّ بفضله عليها بالشفاء وتجاوزت المرحلة الخطرة.. لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها.

أفقنا من نشـوة سـعادتنا بنجاتها وزوال الخطر على حياتها.. على مصاب جلل ألم بها من جراء الحادث الذى تعرضت له.. فقد أصيبت على إثره إصابة بالغة فى ظهرها تطلبت إجراء عدة عمليات فى عمودها الفقرى بعد إصابتها بعدة كسـور فى فقراته المختلفة.. فنتج عنها شـلل

أصاب نصفها الأسـفل لتفقد معه قدرتها على الحركة..ويجمع أطباؤها على عدم قدرتها على السـير مرة أخرى مع الجـزم ببقائها قعيدة أيام حياتها القادمة.

صارحنـا أطباؤها بعد أيـام قليلة من الحادث وفـى أثناء غيبوبتها بإصابتهـا بحالة الشـلل النصفي.. وفقدانها القـدرة على الحركة.. ولم ندرك آنـذاك قدر الخطب الذى ألم بها.. ولم نعطه حقه من الاهتمام.. فلم يكن يشـغل بالنا سـوى خشـيتنا من فقدانها.. وشغلنا خوفنا على حياتهـا عن كل ما عداه خاصة أنهـا كانت تنازع الموت فى كل لحظة تمر بها..وقد توارت مصيبة الشلل الذى أصابها ولم يدر فى خلدنا حجم هـذه الكارثة التى حلت بهـا.. فالمصائب أحجـام وأوزان ومع مصيبة الموت تهون أعظم المصائب.

أدركنـا بعد اطمئناننا على زوال الخطـر على حياتها.. قدر المصاب الـذى ألم بهـا.. والذى ربما يقضى على آمالها وأحلامها.. وتحاشـينا جميعا نقل الحقيقة إليها ومصارحتها بمصابها.. فقد خشـينا ردة فعلها وتخوفنا من محاولتها إنهاء حياتها فى لحظة يأس تلم بها.. خاصة أنه لم يكتمل بعد شفاؤها.

حالة من الحزن والألم تسـيطر على جميع من حولها.. والوجوم يكسو وجوه عائلتها.. ولحظات قاسية يسوقها قدر بلا قلب.. أسقط فرسه جامحة فى سباقها بحلبة الحياة.. وعرقلة توقعها قبل نهاية السباق ونيل جائزته.

محنة قاسـية.. اسـتطاعت ناريمان أن تجتازهـا.. وتقبلت وضعها الجديـد الذى شـاء قدرها اختبار صلابتها وقـوة إيمانها.. وقد فاجأتنا

جميعـــا بقدرتها على التغلب على أحزانها وامتصاص صدمة مرضها .. وحاولـــت التكيف مع ظروف حياتها.. والمصاب الذى ألم بها.. وتجمع حولهـــا الأهل والأصحـــاب يحيطونهـــا بحـــب ودفء ويعضدونها فى محنتها.. والتف حولها أســـاتذتها وزملائها يســـاندونها ويشـــدون من أزرها.. حتى اســـتطاعت بإيمانها وصلابة إرادتهـــا الخروج من أزمتها وتجاوز محنتها بأيسر مما قدرنا.

بدأت ناريمان ســـريعا تستعيد لياقتها.. وتحاول أن تدرك ما فاتها.. فعكفـــت على دراســـتها ومحاضراتها تنهل منها ما تســـتطيع تحصيله استعدادا لاجتياز اختبارات عامها الأخير فى كليتها.

توالت الأيام بطيئة.. وســـارت الأمور سيرها الرتيب.. وبدأت دوامة الحيـــاة تأخـــذ الجميع كل فى فلكه يدور.. وتحـــاول ناريمان أن تتوهم اعتيادها وضعها الجديد .. وتتناسى ما ألم بها وتركز فكرها فى دراستها وامتحاناتها.. مع مسحة حزن تكسو وجهها.. وانكسار أصاب قلبها.

دارت الأيام ســـريعة حتى جاء يوم يحمل لنا بشـــرى لم نتوقعها ولم تـــرد بخلدنا.. فقد أراد القدر أن يخفف من قســـوته.. ويلطف بنســـمة بـــاردة لفحة حر قائظ أحـــرق قلوبنا وألهب صدورنا.. فقد أخبرتنا إدارة المستشفى أنها استعانت بعدد من أطباء دولة أوربية ممن يمتلكون خبرة وكفاءة عالية فى جراحات العمود الفقرى.. وأفادوا بعض اطلاعهم على أشـــعة ناريمـــان وتقاريرها الطبية.. إمكانية شـــفائها بعد إجراء جراحة بسيطة تستكمل الجراحات التى أجريت لها.

اســـتقبلنا هذه الأخبار بفرحة عارمة وســـعادة غامرة يشـــوبها خوف وشـــك من لا يملك اليقـــين.. وتقرر إجراء العملية فى أســـرع وقت وفقا

للتقارير الطبية والحالة المرضية التى تستدعى التدخل السريع قبل أن يضيع الأمل ويصبح شفاؤها سراباً.. وسريعا أنهيت الإجراءات واتخذت الخطوات اللازمة ودخلت ناريمان حجرة العمليات.. والتف حولها فريق الأطباء.. وانتظرنا جميعا وحبسنا أنفاسنا.. وتعلقت قلوبنا برحمة الله.. وارتفعت أنظارنا للسماء.. ولهجت ألسنتنا بالدعاء.

وتشاء إرادة الله أن تتم العملية بنجاح.. وتستطيع ناريمان أن تحرك قدميها بعد ساعات طويلة قضيناها بين ترقب ودعاء.. وتجتاحنا فرحة غامرة.. ونسجد لله شكرا أن استجاب دعاءنا.. وشاءت إرادته أن تتبدل أحزاننا.. وتجازى ناريمان خيرا على صبرها وإيمانها .

وتمر الأيام يوما بعد يوم.. وتستعيد ناريمان صحتها رويدا رويدا.. و تخطو أولى خطواتها.. تحيطها فرحة الأهل والأصدقاء.. يساندها أن تذل خطواتها «عكاز» تتكئ عليه فى خطواتها.. على أمل أن يكتمل شفاؤها وتعود سيرتها الأولى بعد شهر أو شهرين على الأكثر.

بدأت الحياة تأخذ سيرها المعتاد.. وعمدنا أن نسدل ستارا على الأحداث الحزينة التى عشناها جميعا فى الأيام السابقة.. وتأهبت ناريمان لأداء الامتحانات التى لم تبق عليها إلا أيام قليلة.. والتف حولها أساتذتها وزملاؤها لمساعدتها على تحصيل ما فاتها.. وشرح ما استعصى عليها فهمه.. حتى أصبحت على أهبة الاستعداد وتيقنا جميعا من قدرتها على اجتياز النجاح.

اقترحت شقيقتها الكبرى عائشة إقامة حفل صغير فى منزلهم احتفالا بشفاء ناريمان ومحاولة لإضفاء السعادة والبهجة عليها بعد ما

تكبدته من معاناة الأحداث السابقة.. ومكثها في المستشفى لأكثر من شهرين متتاليين بين جراحات وعلاجات وأجواء مرضية.. وشرعت في تنفيذ فكرتها بدعوة الأهل والأصدقاء للاحتفال معا لبث روح جديدة وشحنة إيجابية تحملها على الاستمرار ومواصلة مشوار النجاح.. وتزيح عن كاهلها شوائب حزن وألم خلفتها الأحداث الماضية.

أقيم حفل صاخب سعد فيه الجميع وتألق الأصحاب والأصدقاء.. وجذبت ناريمان أنظار الجميع بجمالها وأناقتها وضحكاتها التى ملأت الأجواء بهجة وفرحاً.. فقد كانت ناريمان عروس هذا الحفل.. تمتلئ طاقة وتشع أملا.

حاولت مشاركتها فرحتها رغم المسافات التى تباعد بيننا..وداعبتها ببعض الكلمات التي تعبر عن حبى لها.. ومدى شوقي إلى رؤيتها.. وتبادلنا بعض الأحاديث القصيرة.. وجددنا آمالنا وأحلامنا في مستقبل تملأه السعادة والهناء.. وتمنيت لها سهرة ممتعة وحفلاً بهيجاً.. مع وعد بلقاء عبر الهاتف صباح اليوم التالى.

سعدت كثيرا بسعادتها وتملكنى شعور بالراحة بعد عناء طويل.. وأحسست أننا قطعنا معا مشوارا طويلاً وقد آن الأوان أن نستريح ونلتقط أنفاسنا ونسعد معاً بنسيم الحب والحياة.

حاولت الاتصال بها فى الصباح لأطمئن على صحتها.. وعودتها لاستكمال علاجها فى المستشفى.. حيث كان مقررا عودتها بعد انتهاء الحفل أو فى الصباح الباكر على أقصى تقدير لاستكمال جلسات العلاج الطبيعى الذى تتلقاه.. ولم أتلق إجابة من جوالها رغم محاولاتى إعادة

الاتصـــال عدة مرات.. فعزيت نفســـى ربما تكون قـــد خلدت للنوم بعد الجهد الذى بذلته فى حفل الأمس.

شـــغلت فى بعض أمور حياتى حتـــى تنبهت على مكالمة واردة على جوالي..أســـرعت أجيب علـــى مكالمتها.. ولأول وهلـــة تزايدت دقات قلبـــى.. وندَّى العرق جبينى.. فقد حمل لى الهاتف صوت ليلى يخالطه بكاء ونواح وصراخ هســـتيرى.. وعبر حشرجة صوتها ونحيبها استطعت بصعوبة أن أميز بعض كلماتها تخبرنى بها.. .وفاة.. .. ناريمان ! !

ماتـــت ناريمـــان.. ماتت.. أين ؟؟ ومتى ؟؟ وكيف ؟؟ أســـئلة كثيرة تراودنى.. ويغيب عقلى.. ويترنح جسدى.. وتنطلق أسئلتى صارخا فى ليلى.. ماذا يا ليلى تقولين وعن أى ناريمان تتكلمين ؟؟ وينقطع الاتصال ولا مجيب عن أسئلتى! !.

□□□

الفصل الثالث

أسـئلة كثيرة تطرق رأسـي.. وأفكار متلاحقـة تراودني.. وعلامات استفهام تزيد الريبة والشك فى صدري.. وبدا عقلي مشوشا عاجزا عن إيجاد أجوبة على أسـئلتي الحائرة التى انطلقت كأسـهم تصيبه وتشل فكره وتستنزف قدراته.

أصابتنـي حالة من الوجوم غيبت مشـاعرى.. ولم أعـد قادرا على استيعاب هذا الخطب الجلل وإدراك واقع أحياه..وشرد عقلي وتاهت نظراتي فى فراغ لامتناهٍ.. لأعلم كم مضى من الوقت ولا أدرى من أمرى شـيئاً.. ووهنت إرادتي وفقدت قدرتى على تحسـس طريقي وخطواتى القادمة.

تمالكت نفسـي بعض الشـيء.. وعاودت الاتصال بليلى حتى أتيقن من خبر موت ناريمان.. وأزيل شـكوكا يضيق بها صدرى.. وأحاول أن أجـد أجوبة عن أسـئلتي تزيح عن كاهلى حـيرة تملكتنى.. وعلامات استفهام تغرس بذور شـك فى قلبى.. ورغم تعدد اتصالاتى ومحاولاتى فإن أحدا لم يجب.

رفض عقلي وقلبى أن يقتنعا بموت ناريمان..وعكفا على خلق الحجج والبراهين لتبرير رفضهما.. وحاولت أن أوهم نفسـي أن نعى ناريمان لم يكن سوى درب من دروب الوهم والخيال.. وأن أحلام اليقظة ربما ساقت هذا الخبر البائس.. ولابد لى أن أفيق من هذا الكابوس.. وقد سـيطر هذا الوهم على فكرى حتى كدت أتيقن أنها الحقيقة وما عداها سراب.

انصرفت إلى بعض أمور حياتى.. وعمدت أن أتناسى أمر هذه المكالمة التى هــزت وجدانى وتركتنى بــين حالة من الشــك واليقين وأفقدتنى توازنى وصوابى .

خطوات مهزوزة ســاقتنى إلى منزلى.. وشرود ذهن يتملكني.. وبحكم العادة توجهت إلى الحاسوب.. وبيد مرتعشة فتحت صفحتنا علنى أجد ناريمان تنتظرنى وتزيح شكًا يجتاحنى.. أو أجد أجوبة عن أسئلتى ربما تبعث فى نفسى أملاً أتشبث به وأجده شاخصاً أمام عينى.

طالعت فى صفحتنا محادثتنا بالأمس وهى تبثنى حبا وأشواقا وتعبر عن ســعادتها وأمنياتها وأحلامها وخططها للمســتقبل وتواعدنى بحياة سعيدة مشرقة.

هــذه آخر كلماتهــا منذ ســويعات قليلة.. تحمل فــى طياتها آمالاً وأحلاماً وحبا للحياة.. فكيف بمن تمســى وقد امتلأت طاقة وحيوية.. تصبح اليوم وقد فارقت الحياة.. دون علة أو سبب يوردها الهلاك؟!

حاشــا لله أن أعترض على وفاتها.. وأعى تماما أن الموت زائر ليس بحاجة إلى سبب أوعلة.. وأن الآجال لا يحكمها منطق أو عقل..ولكنى أردت أن أستجلب الحجج حتى أستيقن عدم موتها.

بينما كنت جالســاً غارقا فى أفكارى بــين مصدق ومكذب.. تلقيت محادثة من ليلى عبر اتصال هاتفى وكان صوتها يغلب عليه بكاء وحزن ولكنــه بدا أكثر تماســكا ووضوحا من مكالمتهــا الماضية.. وأجابتنى عن أســئلتى الكثيرة التى بادرتها بها.. ووضعت بعض النقاط على الحروف التى تفسر لى بعض ما غمض علىّ فهمه..وكانت أجوبتها طعنات تصيب

صميم قلبى وتؤكد وفاة حبيبتى ناريمان.... فقد تحادثنا طويلا إلى أن سمعتها تخبرنى أن ناريمان تم «دفنها اليوم».... دفنت اليوم ! ! !..هنا تاه الحديث بيننا ولم أعد أسمع منه شيئاً ولم يعلق فى أذنى سوى هاتين الكلمتين القاتلتين يتردد صداهما وأكاد أترنح على إثرهما.

أيقنت أن الحياة خلت من وجود ناريمان..وأنها قد أمست ماضياً.. وغابت عن حياتي وأصبحت ذكرى غيبها القدر.. ومع موتها دفنت آمالى وأحلامى وأيام حياتى الباقية.. وعشت بعدها وحيدا شاردا تنتابنى قشعريرة باردة تسرى في جسدى.. وانزويت في ركن حجرتي يتملكنى الخوف ويقتلنى الحزن.. فقد غاب ضوء قمرى وحجبت شمس حياتي.

مارد يصرخ في صدرى.. انطلق يحطم قيوده.. أسير هائما على وجهى.. فقد ضاع منى الطريق.. وتاه على الدرب الصديق.. ومرارة فى حلقى.. وحزن يعتصر قلبى.. وبحر دمع ينساب.. وضاقت الأرض بى على رحابتها.

قسوة الموت حطمتنى.. ولوعة الفراق مزقتنى.. ووحدة عشتها أرهبتنى.. وكأس الحزن تجرعته حتى الثمالة.

حاولت أتشبث بأهداب الحياة.. وبنفس كلومة وروح غائبة سعيت ألم بلحظات ناريمان الأخيرة وألملم ما تبقى من ذكراها..وأستوضح أحداث وفاتها.. وتواصلت مع ليلى علنى ألتمس فى أجوبتها بعض التسلية عن نفسى وراحة تهدئ من روعى.

لم أجد سوى ما يلهب روحى ويعصف بعقلى ويلقى بى فى دوامة حزن قاتلة.. فقد نما إلى علمى أن وفاة ناريمان لم تحدث بطريقة

طبيعية.. وجاء موتها بحادث فريد وعجيب.. ولم يكن أحد يتوقع أن تكون نهايتها فى هذا الحادث البسيط..ولكنها الأسباب التى تسوقها الأقدر ونرى فيها ذريعة لفقد أحبائنا.. فقد علمت أن وفاتها حدثت عقب سقوطها من سلم بيتها فى أثناء مغادرتها مع ليلى لعودتها إلى المستشفى.

فقد تأهبت ناريمان بعد انتهاء الحفل للعودة إلى المستشفى ومعها شقيقتها ليلى تأخذ بيدها وتساعدها على النزول على درجات سلم البيت حيث تنتظرهما شقيقتهما عائشة بسيارتها فى الخارج.. وفجأة تذكرت ناريمان حقيبتها التى تركتها فى غرفتها..وذهبت ليلى لإحضار الحقيبة وتركت ناريمان بمفردها تنتظرها على سلم البيت..وما هى إلا لحظات قصيرة حتى تنطلق صرخة مدوية..ويسمع صوت ارتطام شديد.. وتسرع ليلى مذعورة مهرولة لتجد ناريمان فى أنفاسها الأخيرة تنازع الموت وقد استقرت فى فناء المنزل والدماء تسيل من رأسها.. فقد تزلج «عكازها» على رخام السلم الأملس..وخانها ضعفها.. فشفاؤها لم يكتمل بعد وقدماها لم تقويا على حملها..وتسقط فى براثن الموت بعدما ودعت أهلها وأحباءها فى ليلة فرح قدر لها أن تكون حفل وداع.

أدركت ناريمان أنها سوف تغادر الحياة إلى مثواها الأخير.. وأيقنت أنها فى لحظاتها الأخيرة..وأرادت أن تخفف من وقع الصدمة على شقيقتيها وتعبر عن مدى حبها وإعزازها لهما.. وكانت آخر كلماتها امتنانها لشقيقتها عائشة على إقامة حفل وداعها.. ولم يفتها أن تختصنى بمشاعر حب صادقة.. وأوصت بى شقيقتيها أن تخففا عنى

وقـــع صدمة فراقهـــا.. وأكدت عليهما تنفيذ وصيتها حتى تســتريح فى قبرها..وأنهت بوصيتها كلماتها وفارقت بعدها الحياة .

مـــن حيث أردت التســرية جاءنـــى النكد.. فقد عمـــدت أن يصلنى ما يهدئ من روعى.. ويضفى ســكينة على نفســـى.. فإذا بى أسمع من أخبارهـــا ما يهيج أحزانى ويحطــم قلبى ويصيبنى بيأس يقضى على ما تبقى لى من أمل فى الحياة.. .حيث ألهبت كلماتها أحشائى.. ومزقت أوصالى.. وتركتنى بقايا إنسان .

كنـــت وحيدا ســـاهرا ليلـــي.. يتملكنـــى يقين بفــراق حبيبتى وطى صفحتها.. وتأخذنى غفوة وطيف حلم يبعث الأمل فى نفسي.. وأتشبث بأوهام تمنينى أن ما ألمٍ بى أضغاث أحلام سرعان ما استيقظ منها.

بينمـــا أغالب النـــوم ويغالبنى.. تطلبه نفس هامـــدة أضناها الفراق.. وتجافيه روح معذبة أثخنتها الجراح .

تنبهت على اتصال فى ســـاعة متأخرة من الليل من شقيقتها ليلى.. أثار فضـــولى وأيقظ جوارحى.. حيث فاجأتنى بخبر لم أتوقعه قط.. ولم يدر بخلدى يوما..قد شـــخصت له عينـــاى.. وارتجف من وقعه قلبى.. ولسان حالى يتساءل: كيف ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟؟؟

□□□

مكالمة قصيرة تلقيتها من ليلى فتحت الباب لأسئلة كثيرة تراودني.. وأيقظت داخلي شكًا كان قد تسرب إلى وجدانى فى وقت مضى.. ولكنى لم أمتلك الدليل الذى يدعمه ويحفزنى أن أبوح به.. فقد أبلغتنى ليلى أن عائلتها ذهبت لزيارة ناريمان فى مرقدها بعد مضىّ أسبوع من وفاتها.. وهى عادة فى بلدهم ويتبعها الكثير من شعوب البلدان العربية.. حيث يقوم أهل المتوفى بزيارة مقبرته للدعاء له وطلب الرحمة والمغفرة.. وعند وصولهم إلى باب المقبرة فوجئوا بما أذهلهم وأفقدهم صوابهم.. فقد وجدوا أبوابها مفتحة ولم يجدوا أثراً لجثمان ناريمان.. مفاجأة صادمة أربكتهم وأوقعتهم فى حيرة من أمرهم.. وتحول حزنهم على ابنتهم إلى حالة من الوجوم والتعجب.. ودار بخلدهم تساؤلات كثيرة وعلامات استفهام ألقت بهم فى دوامة شك كادت تطيح بعقولهم.

صدمة أربكتنى كما أربكت عائلتها.. وشاركتهم قهرهم وحزنهم الذى يعيشونه.. ناريمان لا تستحق ما يحدث لها.. فقد عاشت معذبة فى حياتها.. وها هى تتحول إلى لغز بعد وفاتها.. فقد أصابتنا جميعا بشتات الفكر.. وحالة من الخيال الخصب تشطح بنا.. وجميعنا يحاول إدراك الجانى و يفكر بطريقته من منظوره و رؤيته .

خشيت عائلتها من لصوص المقابر واتجه فكرهم نحو عصابات تجارة الأعضاء البشرية وتخوفوا من قيامهم بإخفاء جثمانها.. وتشويه معالمه.. أو تهريبه خارج البلاد.. واستقر يقينهم على استنتاجهم.. وذلك على خلفية انتشار مثل هذه الجرائم فى بلدهم وازدياد اللصوص المتاجرين فى لحوم البشر.. واتجهت ردود أفعالهم إلى هذا الافتراض واستيقنته

أنفسهم وسلموا به على أنه حقيقة ويقين.

دفعتنى هواجسى أن أميل بفكرى إلى اتجاه آخر يخالف وجهتهم.. فلم أجد فى نفسى دافعاً يحملنى على مشاركتهم فكرهم والسير فى طريقهم.. فقد تملكنى حدس وكاد يتحول إلى يقين أن الفاعل الحقيقى الذى عمد إلى سرقة جثمان ناريمان هو أستاذها فى الكلية.. الذى يحمل لقب «بروفيسور»..فهذا الرجل مغرما بحبها ويعشقها لدرجة الجنون.. وقد سردت لى ناريمان الكثير عن محاولاته اليائسة للتقرب والتودد لها.. وعمله الدءوب لكسب ودها.. ومعاناتها من ملاحقته الدائمة لها.. وصدها الدائم له فى محاولة منها لوضع علاقتهما فى إطار محدد لا يخرج عن علاقة طالبة بأستاذها.

لكن يبدو أن حبه الجنونى لها حجب عنه حقيقة مشاعرها نحوه وجعلته يتوهم إمكانية الفوز بقلبها..وقاده خياله المريض للاستمرار فى محاولاته التقرب منها.. مع يقينه برفضها حبه وتصريحها له بارتباطها بشخص آخر اختاره قلبها.

وقد سببت بعض مواقفه تجاهها فى تأزمها نفسيا فى أثناء دراستها وبعض الخلافات مع زميلاتها فى الكلية.. غير أن الأزمة الكبرى التى تعرضت لها حينما تقدم لشقيقها ياسين يطلب يدها للزواج وهى فى غيبوبتها على الرغم من إدراكه حالتها الصحية ووضعها المرضى.. ولكنه أدرك أن الفرصة مواتية وحاول أن يستغل حالة فقدانها لوعيها وعدم مقدرتها على رفض طلبه أو اتخاذ موقف معارض.. وعمد أن ينال وعدا من عائلتها يكتسب به حقا للفوز بها بعد شفائها.. وهو ما قد حدث

بالفعل حيث وافق ياسـين مبدئيا على طلبـه.. مرجئاً الموافقة النهائية بعد شـفاء ناريمان.. وذلـك فى ضوء عدم علمه بالعلاقـة التى تربطنى بشـقيقته.. وقد عرضها ذلك لانتكاسـة خطيرة فى صحتها بعد شفائها مـن الغيبوبة وعلمها بحقيقة الأمر.. وجعلها تثور فى وجه البروفيسـور وتقاطع شقيقها برهة من الزمن.. ولولا تدخل الأطباء فى الوقت المناسب والعناية الإلهية التى أحاطت بها لحدث ما لا يحمد عقباه.

اسـتطاعت ناريمـان بما تملكه من شـخصية قويـة أن تعالج الأمور بحكمة وتتغلب على كثير من المشاكل التى واجهتها آنذاك وكان لها ما أرادت.. وأنهت موضوع خطبة «البروفيسور «مع اعتذار من أخيها على تدخله فى أمورها الشـخصية واعترافه بتجاوزه حـدوده والتدخل دون قصد فى اختيارها.

وبـدأت مرحلة جديدة من تضميد جراحها مع اسـتردادها عافيتها وتماثلها للشـفاء والعودة رويدا رويدا لمطالعة مسـتقبلها ورسـم خطوطه العريضة .. والعمل على تعويض ما فاتها واللحاق بركب الحياة .

خلال تلك المرحلة راودتنى بعض الشكوك تجاه البروفيسور.. وطالبتها بتوخـى الحيطة و الحذر فى التعامل معـه وألا تأمن جانبه ومكره.. ثم توالت الأحداث بعد ذلك سريعة حتي وصلت بنا إلى ما نحن بصدده.

تـكاد ريبتى فى «البروفيسـور» تتحول إلى يقـين بضلوعه فى نبش قـبر ناريمان وسـرقة جثمانها.. وعندى من الأسـباب مـا يدعم يقينى تجاهـه.. فماضيه وأفعاله غير مسـئولة التى تـكاد تصل الى درجة من درجات الاهتزاز النفسـى.. وعشـقه الجنونى لمحبوبتى ناريمان والذى

بدت ملامحه فى صور كثيرة سـابقة.. وكذلك طبيعة عمله كأسـتاذ فى كلية الطب تمكنه من فعل فعلته وسرقة الجثمان دون أن يثير الريبة.

حاولت أن أعلل جريمته وثبت في يقيني أن حبه لها قد دفعه للاحتفاظ بجثمانها فربما يشعر بوصالها بعد وفاتها وهو ما افتقده في حياتها.

عمدت الاحتفاظ بهواجسـي حتى تثبت الأيام صدقها.. أو يأتي أمر جديد يضع حدا لهذه الشـكوك ويبددها.. وإن كنت أكاد أجزم بصدق مشاعرى.. غير أني لا أستطيع البوح بها لافتقادى الدليل الذى يدعمها ويقويها.

تمـر الأيـام بطيئـة و ننتظر جميعا ما تسـفر عنه نتائـج تحقيقات الجهات الأمنية.. وتكشـف لنا هوية الفاعل الحقيقي.. وتنتابنا خلالها أفـكار تطـوف بعقولنا.. تلقى بنـا في بحور هائجـة تتقاذفنا أمواجها العاتية وتبتعد بنا عن شاطئ الأمان.

وتمر ثلاثة أيام وتعاود ليلى التواصل معى وتبلغنى عما أسـفرت عنه نتائج التحقيقات.. وتنقل لى خبرا كدت أصعق عند سماعه!!

❑❑❑

الفصل الرابع

أبلغتنـــى ليلى أن الشـــرطة ألقـــت القبض على عمـــال المدافن الذين ساعدوا على استخراج جثمان ناريمان من قبرها..وبتضييق الخناق عليهم أدلـــوا باعترافات خطيرة قلبت الأوضاع رأســا على عقب.. حيث أكدوا فى أقوالهم أن البروفيســـور هو الذى خطـــط ونفذ واختطف ناريمان بعد أن أخبرهم أنهـــا مازالت على قيد الحياة.. وقد تم دفنها بطريق الخطأ وأنه ســـوف يخرجها ويعالجها ويعيدها إلى أهلها..وقام بإعطائهم مبلغاً من المال نظير مساعدته فى فتح المقبرة واستخراجها.. وجعل الأمر طى الكتمان.

كنـــت قد توقعت هذا الســـيناريو ورسمت أحداثه فـــى خيالى الفترة الماضيـــة.. ولكن لم أجرؤ على البوح به لعدم وجود أدلة تدمغ ظنونى.. وهاهى الأيام تثبت صدق إحساســـى.. وتتحول هواجســـى وبذور الشك التـــى تملأ صدرى إلى يقين أن البروفيســـور هو من أقدم على هذه الفعلة الشنعاء وأنه المجرم الحقيقى وراء هذه الأحداث.. ولكن مالم أكن أتوقعه أو خطـــر لى على بال أن تكون ناريمـــان مازالت على قيد الحياة..حيث اعـــترف عمال المقابر أنهم قاموا باســـتخراج ناريمـــان من المقبرة والحياة تدب فى أوصالها.

أخذت ليلى تروى هذه الأحداث ونبرة صوتها تعرب عن شـــكوكها فى روايـــة عمال المقابـــر.. خاصة فيما يخص بقاء ناريمـــان على قيد الحياة.. وكادت تفقـــد القـــدرة على اســـتيعاب فحوى هذه الأحـــداث التى تعاقبت

أحداثها سـريعا..وأخذت تمر أمامنا كشـريط سـينمائى لفيلم من الخيال العلمى البعيد عن أرض الواقع والذى دمجنا معه وحلق بنا فى دنيا الخيال.

اسـتمعت إلى حديث ليلى والتمسـت لها بعض الأعذار فى تشككها فى صدق رواية العمال.. فجميعنا واقعا بين مصدقا ومكذب.. وتأرجحنا الظنون بين شـك ويقـين.. فهذه الأحداث قد جمحـت بخيالنا تارة.. ولامست بنا أرض الواقع تارة أخرى..فكيف وليلى أختها التى شهدت وفاتها..وبكت فراقها.. وسارت فى جنازتها.. ووارت التراب جثمانها.. وتلقـت عزاءها. وتعيش مع ذكرياتها.. فلها كل الحق أن يملئ الشـك قلبها.. وتأخذ الظنون بعقلها.

أيقنت بما لايدع مجالا للشـك أن ناريمـان حبيبتى لاتزال على قيد الحياة.. وأن ما حدثنى به عقلى وصدقه قلبى لم يكن هاجسـا يراودنى ويسـير بى فى درب من دروب الخيال.. فقد كان يتملكنى يقين بحياة ناريمـان..ولم أجد فى نفسـى مـا يحملنى على القناعـة بموتها.. وقد تشـككت كثيرا وظللت رافضـا فكرة وفاتها لمدة غـير قصيرة..وأعاننى على ذلك شـعور وإحسـاس جـارف ببقائها فى دنيانا وعـدم مغادرتنا للعـالم الآخر..غير أن معطيات الأمور وجـزم من حولى ودفعهم الحجج والبراهين بوفاتها أخذنى لمنحى آخر وجعلنى أسـلم بالأمر الواقع..غير أننى أدركت الآن وبعد محادثة ليلى القصيرة أن ما كان يستقر فى نفسى هو اليقين ذاته.

حاولت بعد جمع شـتات فكرى أن أستيقن بعض الأمور التى غمض علـىَّ فهمها..وأتحرى بعض الأجوبة عن أسـئلتى الحائـرة التى عمد

عقلى على ضخها حول قضية وفاة ناريمان وكيفية دفنها وهى على قيد الحيـــاة.. ممـــا يجعل من وفاتها لغزا بحاجـــه إلى بعض المعلومات التى تساعد على فك طلاسمه وحل رموزه.

تواصلت مع ليلى واســتطعت أن أضع يدى على بداية الخيط الذى فســر لى بعض ما التبس علىَّ فهمه وغمض اســتيعابه..وكان بداية فك اللغز الذى اســتعصى علىَّ حله..حينما عْلمت أن البروفيسور هو من قام بالكشــف على ناريمان بعد ســقوطها ودخولها فــى غيبوبة فقدت على إثرها الوعي..و قد استغل حالة شتات الفكر والحزن التى ألمت بالأسرة وثقتهم به وأخبرهم أن ناريمان فارقت الحياة على إثر ســقوطها وإصابة رأســـها إصابة قاتلة.. وفند أســباب الوفاة فى تقريره الطبى الذى كتبه بخط يده.

يبدو أن البروفيســـور قد أيقن أن الظروف باتت مواتية لتنفيذ خطته الإجرامية التى ربما كانت وليدة اللحظة..أو قد يكون وضع خططا سابقة لاختطافهـــا وحينما ســنحت له الفرصة عمد على اســتغلالها.. وأوهمه خياله المريض أنه بذلك يســتطيع أن يتملك ناريمان ويوقعها فى قبضته وينال منها ويتزوجها.

لم يســاور أحد من العائلة شــكٌ فى تشــخيص البروفيسور وتقريره الطبــى.. فلــم يدر بخلدهــم أن يكون أســتاذها وطبيبها بهــذه العقلية الإجرامية.. وأن تخول له نفسه فعل جرم لا يضاهيه فيه عتاة الإجرام.

تــولى البروفيســور ترتيبــات تجهيــز الجثمان بما له مــن صفة فى المستشــفى ومعرفته بالقائمين على هذه الأمور..وثقة أســرتها أن ابنتهم

فى أيد أمينة.. وانشغالهم فى ترتيب إجراءات الجنازة والدفن والاتصال بالأهل والأقارب.. وغير ذلك من الأشياء المعتادة فى هذه الأحوال.. وقد أتاح له ذلك تنفيذ خطته بالاستعانة والاتفاق مع أعوانه اللذين ساعدوه على إتمام المراسم وإنهائها دون أدنى شك.

استعدت العائلة لدفن ابنتهم وسارت جنازة مهيبة حضرها القاصى والدانى وودعها الأهل والأحباب وعيونهم يملؤها الدمع وقلوبهم تفيض بالحزن.. يملأهم الشك أنهم فى طريقهم لمواراتها التراب وأن جنازتها هى آخر عهدهم بها.. وأن من كانت بالأمس تملأ الحياة حركة وبهجة.. باتت اليوم جثماناً بلا حراك سرعان ما يضمها قبرها وتغيب عن دنياهم.

وحضر البروفيسور جنازتها وكان على رأس المشاركين والمشيعين.. وأول من تقدم بواجب العزاء لأسرتها وذرف من الدمع الكثير وتباكى معهم لفقدانها .

وبعد انتهاء مراسم الدفن ومغادرة الأهل والأصدقاء سارع بقلب ميت ونفس مريضة بتنفيذ خطته ونبش قبرها بمساعدة عمال المقابر.. وقام باختطافها وذهب بها إلى مكان غير معلوم.

انتابتنى حالة من الغضب والحنق على هذا المعتوه وفعلته الحمقاء التى زاد من جرمها أنها تأتى ممن تبوأ أسمى المهن الإنسانية.. وارتقى أعلى الدرجات العلمية..وأقسم على الأمانة والمسئولية..وها قد ضرب عرض الحائط بالقيم والمبادئ الإنسانية..وحنث بقسمه وسخَّر علمه ومهنته لخدمة أغراضه الشيطانية..ونفذ جريمته غير عابئ بالتضحية بمستقبل إنسانة بريئة فى مستهل حياتها.. والقضاء على حلمها..

وحرمانهـــا فرحتها التى جدت واجتهدت ســنين طــوالاً للحصول على شــهادتها وتتويجها فى حفل تخرجها.. وقام بدفنها والحياة تدب فى جســدها.. وحرمها أهلها وحبيبهـــا وعالمها..وأورد صحتها الهلاك بعد أن كادت تتماثل للشفاء.

ذهبت السَّكرة وجاءت الفكرة وبدت أسئلة كثيرة تطرح نفسها: أين ذهب بها ؟ وماذا عن حالها ؟ وكيف السبيل للعثور عليها وإنقاذها من براثنه؟

أســئلة تمنينـــا أن تحمل لنا الأيام التالية الإجابـــة عنها.. وإن كان الشك بدا يراودنا بعد أن طالت الأيام وزادت الأمور غموضا ! !

□□□

تركنـــا الأمور بيد الجهات الأمنية التى بعثت فى نفوســنا الطمأنينة بأن القبض على البروفيســور لن يســتغرق فترة طويلة وسوف يكون فى غضــون الأيـــام القليلة القادمة.. وتعــود ناريمان لأهلها ســالمة.. وينال الجانى جزاءه ويعاقب على جرمه.

انتظرنـــا أياما طويلة حتى مضى أكثر من أســبوع ولم تبدو فى الأفق أية بادرة أمل.. فقد أخفقت الشرطة فى الوصول إليهما أو تحديد مكان إقامتهما.. ولم تســتدل على معرفة وجوده أما زال داخل القطر أم انتقل بها خارج البلاد؟

بدا القلق يدب فى نفوسنا خاصة قد علمنا أن عائلة البروفيسور تتمتع بنفوذ واســع فى الحكومة.. ولهم يد طائلة تتيح لهم فعل ما يبدو لهم.. وربما ساعده ذلك على تنفيذ جريمته وبقائه حرا طليقا هذه المدة الطويلة التى امتدت لأكثر من أسبوعين.

زاد يقيننا بعجز الشــرطة فى العثور عليهمـــا.. وتخاذل رجالها فى التوصـــل إلى مكانهما..وأدركنـــا أنه لا بد لنا من الاعتماد على أنفســـنا فى العثور عليهما.. ومحاولة إيجاد الوســيلة التى نستقى بها معلوماتنا التـــى تمكننا من معرفه مكانهما و الطريق إليهما.. خاصة بعد أن تأكدنا بما لايدع مجالاً للشــك أن البروفيســور هو المجــرم الحقيقى الذى قام باختطافها..ولم يتبق سوى التيقن من وجودها على قيد الحياة .

وقـــد ســاقت لنا الأقــدار خدماتها.. وبصدفة لم تكن فى الحســـبان توصلــت إلى دليل يؤكد بقــاء ناريمان حية حتى الآن.. فقد كنت أطالع صفحتنا على موقع التواصل الاجتماعى بصفة يومية منذ علمت بوفاتها..

وعكفت على مناجاتها وبثها أشواقى وأحزانى.. ووجدت فى ذلك أنساً لنفسي ومواساة لها فى مصابها.. حيث كنت أسترجع ذكرياتى وأعيش في أجوائها..وأشتم عبق لقاءاتنا الماضية.. وقد لاحظت أن ما أخطه من كلمات أناجيها بها يتم قراءته.. ولا يصلنى من أحد رد أو تعليق. «حيث تتيح خاصية تكنولوجية تسجيل توقيت قراءة الرسائل المرسلة».

لم أعط للأمر أهمية فى البداية.. ولكن مع تكرار قراءة رسائلى أثار ذلك فى نفسى بعض الريبة.. ولكنى عزوت ذلك إلى شقيقتها ليلى.. حيث خطر لى أن لوعتها وأحزانها على فراق ناريمان أخذتها لزيارة صفحتنا لتتلمس كلمات أختها الأخيرة «خاصة أنها تحتفظ بكلمة السر التى تتيح لها فتح موقع المحادثة.. وكانت تنقل لى على صفحتنا أخبار ناريمان فى أثناء مرضها..لذا أدركت أنه ربما أخذها الفضول أو المصادفة لقراءة كلماتى ورسائلى التى أناجى بها محبوبتى الغائبة عن عالمنا.

ولكن فى ضوء المستجدات وما آلت إليه الأمور..راودتنى بعض الشكوك أن ناريمان ربما هى التى تقرأ كلماتى ورسائلي..خاصة بعدما أجابتنى ليلى عن استفسارى أنها لم تفتح صفحتنا ولم تقرأ ما بها قط منذ وفاة شقيقتها.. وأن أعصابها لا تحتمل قراءة كلماتها الأخيرة.. ولذلك قررت عمل محاولة لتأكيد ظنوني..ربما تفتح لنا أبواب أمل جديدة تمكننا من العثور عليها..فأرسلت رسالة إلى ناريمان عبر صفحتنا وطلبت منها أن تجيبنى ولو بإشارة إن كانت كلماتى تصلها وهى التى تقرؤها..ورجوتها أن تتواصل معى وتحاول أن تخبرنى إن كانت مازالت على قيد الحياة.

وكم كانت مفاجأة سارة حملتها لى رسالة منها فى اليوم التالى..

حيث جاءنى ردها «أنا ناريمان مازلت حية فى معية البروفيسور».

رسالة قصيرة أرسلتها..استوقفتنى طويلا وأخذت أدقق فى كلماتها وأحملق فى حروفها وأعيد قرأتها مرارا وتكرارا..وأحاول أن أسيطر على انفعالاتى وردود أفعالى..وتملكتنى رغبة جارفة فى البكاء تمتزج بفرحة قلب ملتاع وشوق وحنين لحبيب غائب.

تمالكت نفسى بعض الشىء من وقع هذه المفاجأة..وأيقنت أخيرا بما لايدع مجالاً للشك أن ناريمان مازالت على قيد الحياة..وهى قارئة رسائلى التى أثارت ريبتى طويلا.. وتتمتع بصحة جيدة تمكنها من التواصل معنا..وأننى بذلك قد أمسكت ببداية الخيط الذى يقودنا لمعرفة طريقها ويمكننا من العثور عليها.

أسرعت أنقل البشرى إلى عائلتها حتى تطمئن قلوبهم ويثبت يقينهم بحياة ابنتهم.. وكان لوقع الخبر أبلغ الأثر فى أهلها.. فتلقوه بين مصدق ومكذب..وتملكتهم حالة بين الشك واليقين.. أن ناريمان قد ماتت بين أيديهم وتحت أعينهم.. ودفنت منذ أيام قليلة..ولا يزال عزاؤها منصوبا للأهل والأحباب.. وليس من السهل عليهم تقبل مثل هذه الأخبار دون التيقن من حقيقتها.

تمضى الأيام ونزاد يقيننا جميعا بحياة ناريمان..فقد تحادثنا طويلا على صفحتنا..وسردت لى ناريمان الكثير من تفاصيل واقعها الذى تحياه وحياتها فى كنف البروفيسور..وتجاذبنا معا أطراف الحديث وفكرنا كثيرا فى محاولات كسر قيودها ورسم الخطط لتحريرها من سجنها الذى أقامه «أستاذها» وعين من نفسه سجاناً لها.. وفرض عليها عزلة ووحدة

إلا من وجود خادمة لها تعينها على أمرها وقضاء حوائجها .

حالت حاله ناريمـــان الصحية المتردية وضعف بنيانها وعدم قدرتها علـــى الحركة بصورة طبيعية أن تنفـــذ ما وضعناه من خطط كانت كفيلة بمســـاعدتها على الهرب من محبســـها..وحاولنا مرارا أن نجد مخرجاً يمكنهـــا من الخروج من هذه الأزمة ويفلتها من بين يدى البروفيســـور.. هـــذا العالم الذى وظف علمه ودهاءه فى التخطيط لجريمته بعقلية مجرم عتيد الإجرام.. فقد تمكن من الهروب بها إلى بلد عربي مجاور عن طريق البحر بعد تغيير هويتها وإضفاء أســـم جديد لها يمكنه من التحرك بها عـــبر البلاد المختلفة دون أن يثير الريبة أو الشـــك ويبتعد به عن الوقوع تحت طائلة القانون.

تملـــك ناريمان الخوف وجافاها النوم..فقد شـــعرت أن البروفيســـور يخطـــط للزواج بهـــا.. ويســـير قدما نحو تحقيق هدفـــه.. ويحاول جاهدا اســـتمالة قلبها وطلـــب ودها..ويتفانى فى معالجتهـــا وتطبيبها..ويعمل على تنفيذ أوامرها محاولا استرضاءها وكسب عطفها وحبها..فهو عاشق بدرجة مجرم.

ومـــازاد من خوف ناريمان وأصابها بحالة مـــن الرعب..تلميحه لها بتصميمه على الزواج بها وانتظاره شفاءها لإتمام زواجهما.. وأنه لاسبيل أمامهـــا للخـــروج من محبســـها والعـــودة لأهلها إلا بالموافقـــة على هذه الزيجة..وأوضح لها أن فكره قد هداه إلى تنفيذ مخططه ولم يجد ســـوى هـــذه الطريقة للفوز بقلبها والزواج بها بعد أن رفضت طلبه الاقتران بها مرارا وتكرارا..وأيقن أنها سوف تضيع من بين يديه وتتزوج بمن اختاره

قلبهـــا.. وقد رأى أنه بذلك يســتطيع أن يمتلكها ويتزوج منها..وتنتفى المسئولية الجنائية الواقعة عليه حال عودتهما زوجين لبلدهما .

حالة من الوجوم ســيطرت على ناريمان وامتلأ قلبها يأســا وخوفاً.. وســاءت أحوالها النفســية وتدهورت حالتها الصحية..وقد ساعد على ذلك إحساســها القاتل بالوحدة وتفكيرها الدائم فى أســرتها وما آلت إليه حياتها وضياع مستَقبلها من بين يديها .

قرأ البروفيســور هذه التغــيرات وأدرك أن حلمه يكاد يضيع من بين يديه وأن ما آلت إليه حالة ناريمان النفسية سوف تقف حائلاً بينه وبين تحقيــق هدفــه..وأدرك أن عليه أن يخرج بها مــن هذه الأجواء قبل أن تزداد الحالة ســوءاً وتصل إلى مرحلة الاكتئاب الذى يستعصى علاجه.. وأراد أن يسرى عنها بعض الشيء ويخلق لها عالما ينتشلها من وحدتها ويخرجها من حالتها..فسلمها حاسوبه الشخصى علها تجد فيه سلوتها ويخرجهــا من أزمتها.. بعــد أن تأكد من عجزها على توصيل معلومات تفيــد مكانهما... وهذا ما كان فى ظاهــر الأمر..غير أنه كان يضمر فى نفسه شيئا آخر! !

□□□

الفصل الخامس

استطاعت ناريمان أن تتواصل معى ولكن فى حدود ضيقة حيث كان يحدد لها أوقاتا معينة لاســتخدام الحاســوب ويضعها تحت مراقبته.. غير أنى وجدت فى نفســى بعض الغرابة من تسـليمه الحاســوب لها رغم علمه بإمكانية أن تتواصل مع الأهل والأصدقاء.. وربما اســتطاعت باســتخدام التكنولوجيا الخاصة «بالشبكة العنكبوتية» التوصل إلى مكان وجودهمــا أو معرفة بعض التفاصيل عــن مكانهما..وقد أثار ذلك بعض علامات الاســتفهام لدى فى بادئ الأمر..غــير أنى حاولت تجاوز هذا الأمــر وعزوت هذا التصــرف الغريب إلى خوفــه الحقيقى على صحتها ومراعــاة لعدم تدهور حالتها.. ولكن يبدو أننى تعاملت مع الأمر بكثير من حســن النية وكان يجب أن أكون أكثر حذرا خاصة مع إدراكنا أننا نتعامل مع عقلية إجرامية تطوع الظروف لخدمة أغراضها.. فقد اكتشفنا بعد برهة من الوقت المغزى الحقيقى وراء تركه الحاسوب مع ناريمان.. وأدركنا أننا وقعنا فى فخ نصب لنا بإحكام.. .وعلى الرغم من تحذيرى ناريمان من هذا الشــراك وتأكيدى عليها أن تتيقن من وجودنا فى مأمن منه..غير أنها أفاضت فى بعث الطمأنينة فى قلبى من الوقوع فى هذه الخدعة..وربما لجأت لذلك من خوفها أن أكف عن تواصلى معها وهى فى محبسها لاتجد من يشاركها الحديث أو يشد من عزمها ويبثها أمناً وقوة يجعلانها تتحمل هــذه الفترة العصيبة من حياتها..أوربما أفاضت فى حسن النية مثلما فعلت.

فقد استغل البروفيسور لحظات مرضها وضعفها وعدم وعيها الكامل بعد غيبوبتها وحصل منها على «كلمة السر» الخاصة بصفحتنا على موقع التواصل الاجتماعى دون أن تعى هى ذلك.. واستطاع بهذه الحيلة أن يتوصل إلى أسرارنا وينفذ إلى خططنا ويتجسس على مكالمتنا..وربما خطط لهذا وكان هو هدفه الحقيقي من وراء تركه حاسوبه معها وتسليمها إياه.

وقد استطاعت ناريمان معرفة مخططه والتوصل إلى حقيقة تتبع محادثاتنا ومعرفة ما يدور بيننا وإفساده مخططاتنا.. وذلك حينما منع منها الحاسوب بعد علمه بمحادثة بيننا كادت تكشف عن عنوانها فى البلد الذى يعيشون فيه..فقد أوعزت لها أن تطلب من الخادمة شراء نوع معين من الأغذية المغلفة أو العصائر أو شيء نستطيع أن نعرف من خلال غلافه أو عبوته مكان تصنيعه أو عنوان المتجر الذى يبيعه.. واستطعنا بذلك أن نحدد علامة تجارية لأحد المحال الموجودة فى هذا البلد..وعن طريق عنوان هذا المتجر توصلنا إلى القطر الذى اختطفت إليه ولا يزالان يقيمان به.

وقد كشف لها البروفيسور عن علمه بما يدور بيننا وما نتناقله من أخبار..وذلك بعد مناقشة ساخنة بينهما وشجار عنيف على إثر محاولته منعها استخدام الحاسوب مرة أخرى.

على الجانب الآخر كانت عائلتها تحاول جاهدة إيجاد مخرج لابنتهم ينقذها من معاناتها ويردها سالمة إليهم..وقد تسببت إطاله مدة اختطافها وعدم جدوى محاولات الشرطة من الوصول إليها أن بدأت الأمور تخرج عن نصابها ويزداد الشحن النفسى وانفلات الأعصاب..

وهذا ما دفع شـقيقها ياسـين لمحاولة معرفة مكانها بالضغط على أهل البروفيسـور علهم يعترفون له بمكانهما أو يفيدونه بمعلومة تساعده على التوصـل إليهما.. وقد أخذته الحمية والغضـب وذهب لبيتهم بمفرده دون أن يصطحـب معه أحداً مـن الأهل أو الحرس الخاص به..ودارت بينه وبين أهل البروفيسور مناقشة حادة سرعان ما تحولت لمشادة حامية أحتد فيها الطرفان واستشاطا غضباً..فما كان من أحد أفراد عائلتهم إلا أن قام بطعن ياسـين بسكين طعنات نافذة بالصدر..أصابته إصابة بالغة نقل على إثرها إلى العناية المركزة بالمستشفى بين الحياة والموت.

بدأ إحسـاس اليأس يدب في نفوسـنا.. وازداد الأمر سوءاً وتعقدت الأمور..فجميع الطرق باتت مغلقة في وجوهنا.. فالشـرطة تقف عاجزة عن معرفة مكانهما.. وقد استنفذت محاولاتى للتوصل إليهما.. وعائلتها تقف حائرة لاتملك من أمرها شـيئا خاصة وقد أضيفت لمصائبهم مصيبة جديدة وأصبحوا بين نارين.. نار اختطاف ابنتهم وجهلهم مكانها وخوفهم عليها نوائب ما تحمله الأيام القادمة..ومصيبة شقيقهم الأكبر سندهم فى الحياة الذى يرقد غائباً عن الوعى لايدرك من أمره شـيئا.. يتأرجح بين موت وحياة يتجاذبانه.. وعلى الجانب الأخر فإن البروفيسـور أخذ فى السير قدما لتحقيق هدفه ويصر عليه إصرار من اكتسب حقًّا وتملكه.

□□□

سارت بنا الأيام على هذه الحال بطيئة كئيبة لا يغير من وقعها مغير ولا يكسر رتابتها جديد.. حتى جاء يوم أصبت فيه بحادث عارض أرقدني وغيبني عن الوعى عدة أيام جاوزت الأسبوعين.. حيث كنت أشارك فى إحدى التظاهرات التى تجتاح وطننا هذه الأيام وباتت سمة من سمات حياتنا..وذلك بعد قيام ثورة مصر العظيمة التى أبهرت العالم فى ٢٥ يناير ٢٠١١م واستطاعت إزاحة حكم نظام فاسد دام أكثر من ثلاث عقود..وتبعتها ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣م لتصحيح المسار..وأعقبها فترة من القلاقل بين مؤيدى الثورة ومعارضيها من أنصار جماعة الإخوان المسلمين.. الذين أطيح بهم بعد حكم لم يدم أكثر من عام..وخلال هذه الفترة كثرت المواجهات الدامية بين الطرفين واخلفت الكثير من القتلى والجرحى.. وتعددت التظاهرات تملأ شوارع وميادين مصر.. وكنت أشارك فى بعض هذه التظاهرات السلمية معبرا عن وجهتى ورأيى كمواطن من أبناء هذا الشعب العظيم..وفى إحدى هذه المظاهرات تعرضت المسيرة فجأة لأحداث عنف وإطلاق أسلحة نارية من جانب أفراد من الطرف الآخر..وحدث تدافع بين المتظاهرين ومحاولة الهروب والنجاة بأنفسهم من الرصاص المنطلق من كل مكان حولنا..وأدت حالة الهرج والمرجِ التى أصابت الجميع إلى تساقط العشرات نتيجة دفع بعضهم بعضاً.. وكنت أحد هؤلاء.. وأصبت ببعض الكسور والكدمات فى مختلف أجزاء جسدى دخلت على إثرها فى غيبوبة أرقدتنى فى المستشفى لأكثر من أسبوعين تغيبت فيها عن العالم الخارجي.

علمت ناريمان بما حدث معى من صديقة لنا على علم بقصتنا وتعلم جميع تفاصيلها وما ألم بنا من مصائب القدر.. غير أن ناريمان لم تتحمل صدمة خبر إصابتى.. وإضافة مصيبة جديدة على مصائبها

الكثيرة التى حلت بها.. ولم تتمالك نفسها واجتاحتها أزمة نفسية شديدة أصابتها بصدمة عصبية أفقدتها حركة قدميها وأصابتها بشلل فى ذراعها اليمنى.. وحدث ما كنا نحاول أن نتجنبه وحذرنا منه أطباؤها من ضرورة المحافظة على هدوء أعصابها وعدم تعرضها لانفعالات حادة تؤثر فى نجاح العملية التى أجريت لها مؤخرا واستطاعت أن تحرك بها قدميها وتبدأ فى السير بها حتى كادت تقارب الشفاء لولا هذه الأحداث الجسام التى ألمت بها.. وها هى تتعرض لانتكاسة حذر منها الأطباء وشددوا من خطورة نتائجها.

بعد مرور أسبوعين تماثلت للشفاء من الحادث الذى ألمّ بى وعدت إلى إدراك ما حولى.. وكان أول سؤال لى عن ناريمان وصحتها وما آلت إليها حالها مع سجانها..وهل أطلق سراحها وفك أسرها أم ما زالت على وضعها ؟.. واستطعت أن أستقى آخر أخبارها من صديقتنا التى داومت على الاتصال بها ومتابعه أحوالها.

وبقدر الحزن الذى تملكنى من تدهور حالتها الصحية وما أصابها وألم بها من شلل أقعدها وعاد بنا سيرتنا الأولى.. فقد سعدت بخبر آخر نقلته لنا صديقتنا عن عودة ناريمان إلى عائلتها.. واحتجازها فى المستشفى لتلقى العلاج والعناية اللازمة بعدما وصلت إلى حالة كادت تودى بحياتها.

فقد علمت أن ناريمان قد امتنعت عن تناول الطعام والشراب بعد صدمتها بخبر إصابتى.. واستحضرت ما ألمّ بها من مصائب الدهر.. فهاهى ترقد عاجزة لا تستطيع تحريك قدميها وذراعها وتنتظر معجزة من السماء لتعيد إليها حركتها.. وضاع حلمها ومستقبلها فى أن تصبح طبيبة ويتحقق حلم ظل يراودها حتى اقتربت من تحقيقه وهاهو يتبخر

أمام عينيها.. وشقيقها وسندها «ياسين » يرقد بين الحياة والموت لا يعي من أمره شـيئا.. وها قد أصيب حبيبها مؤخرا ولا تعلم شيئًا عن مصابه ومدى خطورة حالته.. وبروفيسـور معتوه.. متربص بها.. ينتظر تحقيق حلمه وذبح ضحيته بسكين بارد وقلب أعمى.

تجمـع ذلك كله أمـام عينيها..وتملكتها حالة من اليأس والزهد في الحياة..فقررت الانسحاب منها والامتناع عن الطعام والشراب..وساءت حالتها وتدهورت صحتها وباتت أقرب إلى الموت .

أيقن البروفيسور أن ناريمان مقدمة على الهلاك لامحالة وحاول أن يثنيها عن قرارها ولكن محاولاته باءت بالفشل..وخشـى على حياتها مع اقترابها من الموت..فقرر العودة بها وتسـليمها للمستشفى لمتابعتها والعناية بها..وفر هاربا تاركا وراءه بقايا إنسانة حطمت آمالها وأحلامها وباتت تنتظر معجزة من السماء تعيدها إلى حياتها التى سلبت منها وهى فى أوج سعادتها.

وأقـف عاجـزا أرفع راياتى مستسـلما لقـدر ينازلني..وشـريط من الأحـداث يمر أمام عينى أجتر ذكرياته..وقلـب يحترق..ودمعة رقراقة تتحجـر فى مقلتي.. ولا أملك سـوى رجاء وأمـل أن تحل بنا معجزة تعيد لنا سـعادتنا التى أبى القدر أن يتمها علينا وسـلبتها منا الأيام.. ونتطلع معا للمسـتقبل بعيون زائغة..وقلوب وجلة..وشك يراودنا.. وثقة مفقودة تملأ نفوسـنا.. فقد عشنا بداية قصتنا وفرحنا وسعدنا وتمنينا أن نتوج حبنا بنهاية سعيدة ترسم البسمة على وجوهنا..وشاءت الأقدار ألا ينسدل الستار..وتظل قصتنا..بداية... بلا نهاية.

«تمت»

الجزء الثانى

مارد الأسفلت

مارد الأسفلت

انطلقت سرينة سيارة الإسعاف تشق سكون الليل معلنة وقوع حادث لتفسح لها السيارات على طريق مصر الإسكندرية الصحراوى.. وبينما الإسعاف تمخر عباب الطريق مسرعة لتصل إلى موقع الحادث.. يصلنى صوتها وكأنه يأتى من فضاء بعيد أو من خلال مشهد سينمائى يدور حولى وأنا غائب عن تتبع أحداثه.. فالدماء تسيل من رأسى الملقاه على عجلة قيادة سيارتى.. و ينزف جسدى بشدة.. وقد تهشمت ساقى بين حطام السيارة.. ولا أكاد أعى الأحداث إلا لبرهة ثم أغيب عنها وكأنها غفوة نوم تأخذنى من سهرى أو يقظة تقطع نومى الذى سرعان ما أعود إليه مستغرقا .

تلمح عينى زوجتى على كرسى السيارة بجانبى ترقد جثة هامدة فى سبات عميق لاتبدى حركة وقد فارقت الحياة سريعا بعد دقائق قليلة من الحادث.. وبالكاد أرى ابنى «على» الذى لم يتجاوز عامه الرابع وقد أدركته عصابة من خفافيش الليل وانتزعته من حضن أمه التى ماتت وهى تضمه على صدرها.. خاصة بعد أن تعرفوا على شخصيتى وأيقنوا أنهم وقعوا على فريسة وكنز يمكنهم أن يغرفوا منه ما شاءوا بحصولهم على فدية مقابل إطلاق سراحه.. فقد تنامى إلى سمعى نقاشهم وهم يُذكرون بعضهم بعضا وينبرى أحدهم ليعرفهم بشخصى ويُذكرهم بـ «سيد دلنجر» الرجل القاسى الذى تتلمذوا على يديه وشربوا أصول الصنعة من خلاله.. فهم من صبيانى الذين عملوا معى سابقا غير أنى لم أستطع أن أحدد

هويتهم أو أتعرف على شـخصيتهم.. فقد عمل معى الكثيرون.. وتركنى وذهب الكثير منهم ليستقل بعمله بعيدا عنى أو هربا من معاملتى القاسية وبطشـى بهم.. وقد سمعتهم يتندرون على فظاظتى معهم وسوء معاملتى ورغبتهم فى الانتقام منى وخطف ولدى للمطالبة بفديته.

كانـت تصلنى أصوات كثيرة ونـداءات تحاول إفاقتـى والاطمئنان أننـى مازلت على قيـد الحياة.. وهمهمات من حولى لا أكاد أتبينها أو أسـتوعبها.. فينتابنى شـعور أنى فى حلم أو كابوس دموى لا أستطع الفكاك منه وأغوص فى دوامة تبتلعنى وتلقينى فى أعماقها حيث الدماء والأشلاء.

أيقنت بعد دقائق قليلة من انحراف عجلة القيادة فى يدى وانقلاب السـيارة عدة مرات على الطريق السريع.. أن هذه آخر لحظات حياتى وأن طائـر الموت يحوم حولى ويكاد يلتقطنى ويفوز بفريسـته.. غير أنه وعلى الرغم من إصابتى الخطيرة يبدو أنه قد كُتِبَ لى عمر جديد ونجوت من الموت بأعجوبة .

أصابنى صوت سـيارة الإسـعاف وهى تقلنى إلى مستشـفى الطوارئ وتشـق طريقها مسرعة بحالة من عدم الاتزان واختلاط الأمور.. فقد عمد عقلـى الباطن فى هـذه اللحظات الحرجة من حياتى أن يجتر ذكرياتى عن أيامى السـابقة حينما كنت أتتبع صوت سـيارات الإسـعاف على الطرق السريعة وينتابنى حالة من السعادة عند سماعه ينطلق معلنا وقوع حادث على الطريق.. ومدى طربى وسـعادتى عند سماع صوت السرينة الخاص بها.. ذلك الصوت الذى يزلزل قلب مستمعيه لإدراكهم أنه يعلن

وقوع كارثة وسـقوط ضحايا.. غير أنى لم أبـالِ يوما بمُصابى الحوادث أو قتلاها.. وكان ما يهُمنى أننى قد وقعت على كنز ويجب أن أستغل وقتي بأسـرع ما يمكن فى جمعه وامتلاكه.. فأنا مثل الحانوتى يرقص قلبه فرحا بينما تنفطر القلوب حوله حزنا على فقيدهم .

..وكان مـا يشـغل بالى وأحرص عليه تتبع سـير الإسـعاف حتى وصولهـا إلى مكان الحادث.. ثم أقوم بمعاينة المـكان جيدا وألقى نظرة فاحصة على السيارة المنكوبة ومحتوياتها.. وربما لا أنظر إلى أصحابها و أتابع حالتهم وما آلوا إليه بعد الحادث إلا لأطمئن على مدى إصابتهم وقدرتهم على العودة هم أو ذووهم بسـرعة إلى مكان السـيارة لتحميلها والعودة بها إلى حيث موطنهم وسكنهم .

فـور وقوع حادث على الطريق أسـارع مع صبيانى فى همة ونشـاط بسـرقة متعلقات القتلى والمصابين و«تقليب» السيارة من كل ما يمكن أن تصـل إليه أيدينا فى غفلة من الناس المتجمهرين حولنا الذين يشـغلهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المصابين ومحاولة إخراجهم أو إخراج جثثهم.. وفى لحظات قليلة نكون قد لملمنا كل ما بالسـيارة.. وسرعان ما نستقل دراجاتنا البخارية وننطلق على الطريق مبتعدين عن موقع الحادث.

بعد برهة قصيرة من الوقت والانتهاء من نقل المصابين والقتلى وهدوء الأمـور فى مكان الحادث.. وانفضاض تجمع المتجمهرين حوله.. نعاود مـرة أخرى حيث السـيارة المنكوبة وقد خلت من الحراسـة والمتابعة.. ونعمـل بخفة وسـرعة على فـك أجزائها وتحميل ما خـف وزنه وغلا ثمنه.. وقد سـاعدتنى مهنتى السابقة فى ورشة لإصلاح السيارات على

أن أبرع فى ذلك وأعرف بواطن الأمور وكيفية التعامل مع السيارة وفك مكوناتها.. وسرعان ما ننتهى من عملنا وننطلق من المكان تاركين السيارة وقد باتت عظما بلا لحم.

استمرت الحال على هذا المنوال ردحا من الزمن حتى استطعت أن أكون ثروة ضخمة ساعدنى على جمعها إمبراطورية كبيرة من شياطين الأسفلت الذين يعملون لصالحى ويأتمرون بأمرى.. وتمكنت بما أتمتع به من بأسٍ وبطشٍ من السيطرة عليهم وجمعهم تحت لوائى دون أن يخرج أحد عن طوعى.. على الرغم من أن الكثير منهم من عتاة الإجرام وممن اشتهر عنهم البلطجة وترويع الآمنين.. غير أن مجرد ذكر اسم «سيد دلنجر» كان كافيا بجعل مفاصلهم ترتعد خوفا.

رأيت بعد فترة من الزمن وبعد أن أصبحت من أصحاب الثروات وجمعت الملايين أن أحاول أن أغير من وضعى ومهنتى.. وأن أندرج فى سلك رجال الأعمال أتخذ منه ستارا أغسل فيه أموالى وأظهر بمظهرٍ جديد يتيح لى حياة سهلة بعيدا عن شقاء الحياة التى أحياها ومخاطرها اليومية.

كان لى ما أردت حيث استطعت أن أشارك فى أحد المصانع الكبيرة وأصبح صاحب الحصة الكبرى فيه..وأطلقت صبيانى وتركت لهم حرية العمل بعيدا عنى.. على أن يختار كل منهم طريقه بما يتراءى له ويحاولوا محوى من ذاكرتهم ونسياني..وسرعان ما انخرطت فى عملى الجديد ومباشرة مصنعى وانتقلت معه إلى وسط ومجتمعٍ يختلف كثيرا.. بل لا يوجد وجه مقارنة بينه وبين مجتمعى السابق.

محا الأطباء من وجهى آثار فترة الشقاوة التى عشتها وتركت علاماتها من حُفر وندوب تركتها نصول المطاوى والأسلحة البيضاء على وجهى.. ومن خطوط متعامدة ومتوازية ملأت جسدى وكأنما ترسم صورة عبثية لم تكتمل.. فقد أجريت عدة عمليات تجميل فى أكبر المراكز والمستشفيات المتخصصة التى استطاعت أن تنهى آثار زمن الشقاء.

وبقدر ما استطاع مشرط الطبيب تحسين صورتى وإزالة آثار الماضى.. فإن مشرط الزمان لم يستطع أن يمحو ما فى قلبى من شقاء وبأس وقسوة ونقمة على الناس من حولى الذين أذاقونى من ظلمهم وإذلالهم أيام حياتى الأولى ما قتل الإحساس فى داخلى وعصف بكل ذرة عطف أو حب فى قلبى.. ولم يتركوا سوى بذور الشر والقسوة والجبروت تنمو حتى جعلت منى «سيد دلنجر» الذى يخشاه الجميع.

وما إن وصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى حتى أسرعوا بى على عَجل إلى غرفة العمليات نظرا لخطورة حالتى التى تطلبت تدخلاً جراحياً سريعاً لإنقاذى من نزيف داخلى ومعالجة الجروح التى أصابتنى فى مختلف أنحاء جسدى.. وشلل أصاب ذراعى وأعجز لسانى عن النطق.

واختلف الأطباء كثيرا حول كيفية علاج قدمى واستقرت بهم الحال أخيرا بالاتفاق على ضرورة بترها نظرا لتهتك أنسجتها وطحن عظامها جراء الحادث.

خرجت من غرفة العمليات وقد أصبحت بقايا إنسان.. بترت ساقى.. وأصابنى الشلل وعجز لسانى.. وماتت زوجتى.. وخطف ولدى.. وتبخرت الحياة أمام عينى.. وشعرت أن آثار «البنج» بدأت فى

الزوال.. ودخلت مرحلة بين الإفاقة والنوم.. وشعرت بعقلى الباطن يصر على أن يعود بى لأيام حياتى الأولى ويعرض شـريط ذكريات نشـأتى التعيسة وطفولتى المشردة.. ويعرض أيام كاد الزمان يمحو آثارها وتسدل عليها ستائر النسيان.

ترجـع بى الذاكـرة منذ أن وعيت على الحيـاة.. إلى طفل صغير لا يعرف له أهلاً ولا سكناً.. يفترش الأرض ويلتحف السماء.. أنام بجوار حائط مسجد على رأس الحارة التى وجدت نفسى بها فى أحد الأحياء القديمة فى قاهرة المعز.

فقد أدركـت منذ نعومة أظافرى أن حياتى مختلفة عن حياة أقرانى وأطفال الحارة التى أسكن شوارعها وأزقتها.. فليس لى أهل يعيلوننى ولا بيت يؤوينى.. أهيم على وجهى فى نهارى.. لا أجد ما يسـد رمقى إلا بعض بقايا وفضلات طعام أهل الحارة مما يجودون به.. وأقضى يومى فى اللعب واللهو بشـوارعها وحواريها.. حتى إذا ما جن الليل أنزوى بجوار حائط مسجد الحى.. أو أجد لى مكاناً تحت عربة خضار مملوكة لأحـد البائعين الجائلين من سـكان الحارة كان يتركهـا أمام بيته بعد عودته من بيع الخضار والفاكهة فى شـوارع المناطق القريبة من منطقتنا ليستيقظ فى اليوم التالى يعدها ليوم جديد ويخرج لشراء بضاعته من سوق الجملة الموجود على أطراف الحى.. ويعاود تكرار أيامه السابقة فى بيع خضـاره وفاكهته.. وهكذا تدور أيامه متشـابهة لا جديد يطرأ عليها.. وكانت هذه العربة تعد ملجأ وملاذا لى فى كثير من أوقات وأيام حياتى خاصة فى أيام الشـتاء الباردة فلا مأوى من الأمطار والبرودة الشـديدة

سوى جوفها حيث أللم أطرافي وأكور نفسي كي أجد بعض الدفء في أجزاء جسدى التى تدفء بعضها بعضا.

تركت مرحلة الطفولة ودخلت طور الصبا الذى اختلف عن أيامي الأولى.. وبدأت أدرك الحياة التى أعيشها وواقعى الذى نشأت فيه وفرضته علىَّ الأيام.. ولاحت أمام عينى حقائق لم أكن أفطن إليها أو أعيها.. حيث أدركت أنى من المشردين فى الأرض وممن كتب عليهم الشقاء خلال رحلة حياتهم.. لذلك حاولت أن أجد لنفسى عملا يحقق لى قدرا من الاستقلال يعيننى على الحياة ومتطلباتها.. وتطوع بعض أهل الحارة الطيبين لمساعدتى فى الحصول على عمل يكفلنى.. غير أنى كنت قد تعودت على حياة التشرد والحرية غير المسئولة ونمت داخلى روح التمرد والعصيان.. لذلك لم أوفق فى أى عمل من الأعمال الكثيرة التى حاولت إن أنخرط بها وأتعلمها.. وكان ذلك يدفع أصحاب الأعمال إلى معاقبتى والنيل منى لإخفاقى فى الأعمال الموكولة لى وعدم انصياعى لأوامرهم وطلباتهم.. حتى إن المهنة التى أحببتها وأجدتها وعملت بها فترة من الزمان فى ورشة لإصلاح السيارات.. لم أستطع الصبر عليها.. ولم يتحملنى أصحابها ولا زبائنها.. فطبيعة الحياة التى أحياها وقسوة الأيام والمعاملة الفظة والزجر من كثير من أهل الحى.. قد قتل اللين والإحساس فى قلبى.. وزاد من خشونة طباعي..حتى إننى وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة كنت محسوبا على عالم البلطجة والإجرام وممن يخشى الناس جبروتهم وقسوتهم.

وكنت أرى نظرة الخوف والرعب في عيون من حولى.. وعمل الجميع على كسب ودى وتفادى شرى.. وأصابنى ذلك بنوع من الرضا فقد

وجدته عوضا لى عن أيامى السابقة التى نالنى فيها من الذل والقهر ما نزع من قلبى كل مشاعر الخير والرحمة.. وتطورت بى الحال حتى أصبحت عتيــدا فى دنيا الإجرام.. وذاع صيتى فــى منطقتنا والمناطق المحيطة.. وفَرضت سطوتى على الحى والأحياء القريبة منه.. وتزاملت مع عدد من المجرمــين وعتاة الإجرام فى المناطق المجاورة لنا.. و جمعتنا ســهرات سكر وعربدة..ولفت رءوسنا سجائر الحشيش والمخدرات.. وأصبحت من المطلوبين والمطاردين من الأمن ورجاله حتى إنى قد أصبت برصاصه فى قدمى اليمنى فى أثناء إحدى المطاردات وتركتنى بعاهة مستديمة أعرج على إثرها.. وقد منحتنى عاهتى علامة بين أقرانى من صحبة الســوء وزادتنى قسوة وجبروت أصبهُما على من يقف فى طريقى أو يخالف أوامرى.. ولذلك خشــينى الجميع وتملكهم الرعب من مجرد ذكر اسمى وكأنى شيطان يستوجب العياذ بالله من حضوره.

وعرفت فى المنطقة باسم «سيد دلنجر» من فرط قسوتى وبطشى.. وكان ذكر هذا الاســم كفيلا بأن يصيب قلوب أشد الرجال بالهلع والخوف.. وقــد أراد أصدقاء الســوء أن يخففــوا من وطأة هذا اللقب فى جلســاتنا الخاصة التى تجمعنا حيث يلفنا دخان المخدرات وتطيح برءوسنا كؤوس الخمر. فلقبونى «ســيد ســيكا» و هو الاسم المحبب لى حيث أشعر معه بخروجى من شقاء النهار وشقاوته وانغماسى فى دنيا الليل وملذاته .

عادة أنهى ســهراتى وأدخل الحى بعد انتصاف الليل عندما يغطى الظلام بيوته ومعالمه.. و أول ما يطالعنى وأجده أمامى يجوب أســفلت الطريق وشــوارع المنطقة الكلب «مــارد».. وأرى نظراته وقد ملأها الود

والحب ويستقبلني بهز ذيله تعبيرا عن عرفانه ووفائه للجميل.. فقد صادفت «مارداً» منذ أكثر من عشر سنوات وهو جرو صغير.. ورأيت أطفال الحارة وقد أمسكوا به وأخذوا يكيلون له الضرب بعصيهم وأقدامهم وهو يصرخ مستنجدا بمن ينقذه من أيديهم حتى كاد يلفظ أنفاسه تحت وطأة ضرباتهم.. ونظرت حولى فلم أجد منقذا من أهل الحارة الذين قست قلوبهم ولم تهتز لأنين هذا الجرو الضعيف.. فهرعت محاولا إنقاذه من بين أيدى هؤلاء الأطفال و عملت على معالجة جروحه ومتابعة حالته حتى تماثل للشفاء ثم أطلقته بعد أن تعافى واسترد صحته.

حمل لى «مارد» هذا المعروف وكنت أرى الود فى عينيه إذا ما التقت عينانا.. غير أنى كنت أشعر برباط خفى يربطنى بهذا الكلب.. ربما تشابه ظروف حياتنا والقسوة التى تعرضنا لها فى شوارع المنطقة والحى القديم الذى وُجِدنا فيه وتربينا على ترابه معاً ولا نعرف لنا أصولاً تربطنا به.. ويبدو أن ما تعرض له «مارد» فى بواكير حياته ومعاناته من أطفال الحى ومطاردتهم له دوما.. قد ترك فى نفسه الأثر ذاته الذى ملأنى حقدا وبأسا.. فقد شب مارد ومظاهر القسوة بادية على وجهه.. و زادته حياته التعسة سعارا وعنفا وملأت عينيه رعبا وتحديا.. وأصبح «مارد» بلونه الأسود الداكن الذى تخالطه بعض الألوان البيضاء والرمادية التى تعلو مقدمة صدره وقد عفرته الأتربة كتمثال تم نحته من الطين وصبغه بلونها.. ومع عينيه الجاحظتين وأنيابه البارزة جَسد صورة الشيطان وخشيه الجميع وعمدوا على تجنبه والابتعاد عن طريقه.

حاول أهل المنطقة كثيرا الخلاص من «مارد» سواء بأنفسهم أو بالإبلاغ عنه..غير أن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل.. حتى إن

رصاصـــات رجال الصحة قد جانبته عندما أرادوا قتله والخلاص منه.. إلا مــن رصاصة أصابت قدمه وجعلته يســير علـــى ثلاث أرجل بعد أن تســببت في شــلل لرجله الأمامية.. وهو ما جعل أهل المنطقة يربطون بيني وبينه في كثير من الصفات حتى في عرجة القدم التي نعانيها معاً.

تابعت «مارد» كثيرا وهي يجوب الأســفلت يطارد فرائسه أو يهاجم أحــد الأطفــال أو مزمجرا أمام غريب أو عابر ســبيل ليمــلأ قلبه هلعا ورعبــا.. ..وعلى الرغم مــن أن كل من بالحي والمنطقة يعرفونه.. ووعي الكثــير من الأطفال على وجوده فإن خوفهم وخشــيتهم بأســه وكرههم له يزداد يوما بعد يوم لما يتجشــمونه من خوفا ورعبا من مهاجمته لهم وإيذائهم.

وقــد تملكني الفضول يوما ما وســاقني أن أتتبع خطوات «مارد» وهو يقطــع الطريق الســريع الذي يربط بين منطقتنا ومنطقــة قريبة لنا حيث يوجد متجر بيع للقطــط والكلاب الأليفة.. ورأيت «مارداً» يجلس بعيدا عن المتجر و يتجه بنظره نحو هذه الحيوانات المنزلية و نظرة ألم وحسرة تملئ عينيه على ما آلت إليه حاله.. وربما تملكه نوع من الحسد والغيرة من هذه الكلاب الباهظة الثمن.. اللامعة الشــعر ونظيفة الجلد.. ورأيته ينظــر إلى طعامها الــذي لم يتذوقه يوما في حياته ولم ير له شــبيها في حارته التي شب بها.. ثم ينزوي جالسا يتأمل و يرقب السيارات الفارهة و أصحابها وهي تصطحب هذه الكلاب المحظوظة لتسكن الفلل والقصور.. وتصيبه حالة من الحزن ينكس على إثرها رأســه ويضع ذيله بين رجليه ويعود أدراجه وقد امتلأ قلبه حسرة وانكسارا وازداد بأسا وشراسة.

أدركـــت منذ هذا اليوم الرابط الذى يربـــط بينى وبين «مارد »حيث تذكـــرت مع نظرته طفولتـــى وأنا أتابع أطفال الحى مع عائلاتهم فى أعيادهم وقد لبســـوا الجديد وأكلـــوا الثريد وناموا بفراشـــهم الدافئ فى أحضان أسرهم تحت سقف بيت يؤويهم ويحميهم من برد الشتاء وحرارة الصيف ويعطيهم الإحســـاس بالأمان.. وكم من أيام نظرت إليهم بحسرة وحســـد وتمنيت أن أفوز بيـــوم من حياتهم.. بل أحيانـــا كان يتملكنى الخيال وأهرب معه من واقعى البائس الذى وجدت نفســـى أســـيره دون ذنب جنيته أو جرم ارتكبته.. فربما أفرزت قسوة الحياة وشظف العيش كائنين مختلفين فى تصنيفهما جمعت بينهما صفات ونظرات مشـــتركة جعلـــت أهل الحى يربطون بيننا ويذكروننا معاً.. وبات كرههم وتمنيهم الخلاص من «مارد الإسفلت» و «دلنجر» أملاً يتمنونه ويسعون لتحقيقه.

حاولت جاهدا الفكاك من هذا الواقع وأن أجد لنفســـى عملا يمكننى مـــن أن أكمل حياتى ويحقق لى حياة البـــذخ التى تمنيتها ورغبت فيها حتى أنفق على ســـهراتى وأعوض ما فاتنى وأنســـى شظف العيش الذى لاحقنى على مدار حياتى.. وأدركت أنى لن أســـتطيع العمل أجيرا عند أحد فى منطقتنا أو خارجها فطبيعتى العدوانية الشرسة جعلتنى لا أطيق أن أؤمـــر بأمر أحد أو أكون تابعاً لـــه.. وعلى جانب آخر فإن أصحاب الأعمال باتوا يخشوننى ولا يريد أحد منهم عملى معه.

وساقنى القدر لممارسة عمل لم يخطر لى على بال يوما ما.. فقد عرض صديق لى مرافقته لمشوار سفر خارج المدينة لجلب بعض البضائع اللازمة لمتجره.. وركبت معه دراجته البخارية وســـارت بنا على الطريق السريع

الـــذى يربط بـــين القاهرة والمدينة القريبة التى تتجة إليها.. وما إن كاد الطريق ينتصف حتى وقع أمامنا حادث لســيارة نتج عنه وفاة قائدها.. ووجدنا أنفســنا أمام السيارة والقتيل بمفردنا قبل أن ينتبه إليها المارة ويسارعوا إلى محاولة الإنقاذ أوتلبية للفضول الذى يتملكهم.

وفى غضون لحظــات قليلة خطر بفكرى الإجرامى أن «أُقلب» قائد الســيارة المتوفى وأســرق أغراضه وأمواله.. وعملت بســرعة على تنفيذ فكرتى والانتهاء منهــا.. ثم وقفت مع المتجمهرين حول الحادث الذين تجمعوا فيما بعد حتى حضرت الإسعاف وتم نقل جثمان قائد السيارة وانفض الجميع.. غير أنى لم أترك مكانى ووقفت طويلا أمام الســيارة المنكوبــة أتفحص حطامها لتكتمل فكرتى الشــيطانية بالعودة فى وقت لاحــق لفكها وســرقة ما يمكن حمله من أجزائهــا.. و اعتمدت على مهارتى التى اكتســبتها من عملى الســابق فى ورشــة إصلاح السيارات حتى أصبحت على دراية كاملة بهذا العمل .

ومنــذ هذا اليوم أصبحت تلك حرفتى وصنعتى.. وابتعت دراجة نارية وأصبحت أجوب طرق السفر السريعة الممتدة فى جميع المحافظات أقطع الأســفلت ذهابا وإيابا بحثا عن حادث لسيارة على الطريق.. و كثيرا ما أتتبع سيارة الإسعاف وأنطلق خلفها لتصل بى إلى غايتى المنشودة.

استمرت الحال على هذا المنوال واستطعت أن أجمع ثروة ضخمه فى غضون عدة أعوام قليلة خاصة بعد أن كونت شبكة من الصبية وجعلت كل مجموعــة منهم تختــص بطريق من الطرق التــى تربط المحافظات بعضهــا ببعض.. وعمل تحت إمرتــى عدد كبير من هؤلاء الصبية الذين

أطلقت عليهم شياطين الأسفلت لانتشارهم بجميع الطرق وظهورهم فجأة عند كل حادث.

وداوم علـــى العمل معى عدد كبير من هــؤلاء الصبية.. وعمد البعض الآخــر إلى الاســتقلال فــى عمله وانفصل عــن العمل معـــى.. وتكونت مجاميــع وعصابات مختلفة تشــعبت أهدافهم وأعمالهــم.. وكنت في ســبيلى للسيطرة عليهم أمارس معهم القسوة والشدة حتى أضمن ولاءهم واطاعتهــم لأوامرى خاصة وأن الكثــير منهم يحمل الجينات الإجرامية وتمرس فى أعمال البلطجة والإجرام.. و لم يتحمل الكثير منهم معاملتى الفظة وانشــق للعمل بعيدا عنى.. وكانت تصلنــى أخبار بعضهم وأعلم الكثير عن نشاطهم.. فيما غاب عنى نشاط البعض الآخر .

دارت عجلة الأيام ســريعة وتبدلت الأحوال و اســتطعت أن أجمع ثــروة طائلة وحاولت أن أبدو فى صورة غير صورتى وهيئة غير هيئتى.. فعمدت إلى اســتثمار أموالى وشراء مصنع للمواد الغذائية.. وأصبحت بين عشــية وضحاها من رجال الأعمال ورجلاً من رجال الصناعة والاستثمار يشــار إليه بالبنان فى مجتمع الصفــوة.. وغيرت من هيئتى الخارجية وحاولت محو ما خَطته شقاوة الأيام على وجهى.. غير أنى لم أستطع تغيــير ما بداخلى وإزالة تراكمات الأيام وآثار قســوتها على قلبى رغم محاولاتــى الكثيرة.. وأدركت مع الأيام أن قســوتى وفظاظتى باتا من نسيج ذاتى ولا سبيل لعلاجهما وفصلى عنهما.

حاولــت أن أكمل وجاهتــى الاجتماعية وأتزوج مــن صفوة القوم.. وســاقت لى الأقدار فرصة للزواج من فتاة من أســرة ثرية سقط والدها فى

براثن الإفلاس وكادت ديونه تدخله السجن.. ولجأ لى لمساعدته فى أزمته وسداد دينه مقابل الضمانات التى أطلبها.. وكعهدى بنفسى عمدت على استغلال الفرصة التى لاحت لى وطلبت منه الزواج بابنته.. ورغم تحفظه وممانعته فى أول الأمر فإنه وافق فى النهاية تحت إلحاح وضغط منى.. وخشية من تعرضه للسجن حال عدم تمكنه من سداد دينه.. وهو لا يعلم عنى سوى أنى رجل أعمال ناجح ومستثمر كبير فى السوق.

وتم لى ما أردت وانتقلت بزوجتى إلى سكن جديد فى أحد الأحياء الراقية وسط القاهرة.. وتركت سكنى الفاخر الذى شيدته فى الحى الذى نشأت وتربيت به.

زاد المال من سطوتى وفظاظتى مع أبناء الحى الذى تربيت فيه.. وكنت أتلذذ فى إذلالهم والنيل منهم خاصة إذا أعوزتهم الحاجة ولجأوا إلى فى طلب العون.. وكانت كراهيتى لهم تجعلنى أتشفى فى مصائبهم وأتلذذ من شقائهم.. وكثيرا ما رأيت الحقد والخوف فى عيونهم غير أنهم كانوا يداهنوننى ويظهرون لى غير ما فى باطنهم.. وشيد بينى وبين أهل الحى سور من الخوف زاد من ارتفاعه سطوة المال حتى حال بينى وبينهم وأصبح حاجزا يفصل بيننا على الدوام.

مر شريط الذكريات أمام عينى وتذكرت بداية حياتى وأيامى الأولى.. وها أنا أفقد ما بنيته فى سنين عمرى.. وفى دقائق قليلة بترت قدمى وأصبحت عاجزا عن الحركة.. وملأت الجروح جسدى و تركت بصماتها على وجهى.. وفقدت زوجتى التى أحببتها وظننت أنى قد وجدت دفء البيت والعائلة برفقتها.. وابنى «على» الذى أنجبته مع اقترابى

من الأربعين وعهدته سـندا وامتدادا لحياتى.. قد اختطفته عصابة من شـياطين الأسـفلت من صنع يدى ولا أعلم عنها شيئا وتطالبنى بثروتى مقابل إطلاق سراحه والإبقاء على حياته.

حياتـى تضيع من يدى و عمرى يُسـرق منى فـى غفوة من الزمان ولا أجد صديقا أو أنيسا يؤازرنى ويأخذ بيدى.. حاولت أن أجد حضناً يضمنى ويمنحنى بعض الأمان.. فطلبت من رجال الإسعاف أن يأخذونى إلى مسكنى فى الحى القديم الذى شهد طفولتى وريعان شبابى.. علنى أجد بقرب أهله بعض الدفء والأمان وأشعر فى معيتهم بروح العائلة التى أفتقدها.

انطلق بى رجال الإسـعاف صوب منزلى محمولا على كرسى متحرك لا أكاد أقـوى على الحركة.. ووصلت إلى الحـى القديم وأخذت أجول بنظـرى فى وجـوه أهله محاولا اسـتدراك عطفهم.. وهـم ينظرون لى ويشـيحون عنى بوجوههم و فى نظراتهم شماتة وتشـفٍ وقسـوة كتلك القسـوة التى عهدتها منذ كنت طفلاً صغـيراً وهم يقتلون كل نبتة حب وخـير تنمو فى قلبـى.. فتجتاحنى موجة من الغضب واليأس تعود بى لأيامى الأولى على أهل هذا الحى القاسـية قلوبهم.. ولكن ماذا عسـاى أن أفعل وليس فى وسـعى شـيء فقد أصبحت عاجزا حتى عن الكلام والتعبير عن غضبى؟!

وفى خضم مشـاعر القسـوة والحنق المتبادلة مع أهلى بالحى الذين نشـأت وترعرعت بينهم.. شـعرت بعين يملؤها الحـب والحنين تنظر لى وتطيل النظر.. وإذا «مارد الأسـفلت» قادم نحوى يهز ذيله ويمسـح عنقه فى ثيابى.. فبادلته النظرات لأجد فى عينيه نظرة انكسـار وحزن

وقد أصابه الهرم وضمر جسـده واعتل ومـلأت الندوب والجروح جلده الطيني.. ولكنه لايزال يحمل في قلبه بعض الوفاء.

□□□

«تمت»

رسالة شهيد

رسالة شهيد

مع إشراقة شمس ويوم جديد..استيقظت مع أسرتى.. نمارس طقوسا روتينية اعتدناها وأصبحت جزءا من حياتنا اليومية..وهى لاتختلف كثيرا عن عادات الكثير من الأسـر المصرية المتوسطة التى تعد المكون الأساسى للمجتمـع المصرى. فقد أيقظتنى والدتى فـى الصباح الباكر لهذا اليوم.. وكعادتى لم أستيقظ من الوهلة الأولى.. فقد ألحت أمى علىَّ كثيرا.. حتى استطعت أن أترك فراشى الدافئ.. وأنهض متثاقلا.. .تجتاحنى موجات من النعاس..أحاول أن أتغلب عليها وأقاومها وكأنى فى دوامة تحاول أن تبتلعنى.. وأجاهد فى الفكاك من قبضتها.. أزيح عنى غطائى.. وأتثاءب طـاردا نوما يشـدنى أن أخلد فيه.. وما إن أحـاول النهوض حتى تبادر إلى أذنى صوت أمى بنبراته اليائسـة وهى تحاول إيقاظ إخوتى.. وتكرر محاولاتها مرة تلو الأخرى حتى توقظ الجميع ولا تترك منهم أحدا حتى تطمئن أنه قد ترك فراشـه وجفا نومه.. فبرودة الشتاء تجعل من الغطاء ملاذا آمنا.. وتضفى على النوم متعة لا تعادلها متعة أخرى.

وسـرعان ما يمر الوقت وفى غضون دقائق قليلة يكون جميع من فى البيت قد نفضوا عنهم نومهم.. وتحول البيت الى مايشـبه خلية نحل.. كل أفـراده يعرف واجبه وهدفه المعتاد.. ويحاول أن يسـرع فى إنجازه ليغادر إلى دروب الحياة المختلفة.

سـريعا أنهت والدتى إعـداد مائدة الإفطار.. وتجمـع حولها أفراد أسـرتى الصغـيرة.. وفى صدارة المائدة يجلس أبـى.. وقد أنهى إفطاره

بصورة سريعة حتى قبل أن نبدأ نحن فطورنا.. وكأنه أراد أن يرسل لنا رسالة عملية مفادها أن الوقت كاد يداهمنا ويجب علينا أن نسرع حتى لايأخذنا عن واجباتنا.

وبينمـــا نتناول إفطارنـــا كان أبى يبدى بعض ملاحظاته التى لايمل عن تكرارها لى ولإخوتى منتقضا تارة وناصحا تارة أخرى.. وقد أمسـك بيده كوبا من الشاى الساخن.. أخذ يرتشف منه فى عجالة.. وسيجارة لاتفــارق شــفتيه ينفث دخانها وكأنه يدفع بها عــدوا أراد النيل منه.. أويزيح عن كاهله همًّا جاثمًا على صدره.

يعمل أبى موظفا بسيطا فى إحدى المصالح الحكومية..ورغم حصوله علــى مؤهل جامعى فــإن نظامنــا البيروقراطى قد أحكــم عليه قبضته وحاصــره فى وظيفة صغيرة لم يســتطع الفكاك مــن براثينها أو الصعود على سلمها.. فلم تتح له الظروف الترقى إلى درجات أعلى أو الوصول إلى سلم الوظائف القيادية التى تحتاج إلى قدر من المؤهلات الشخصية التى يفتقر إليها.. فطبيعته الجادة واســتقامته الشديدة وميله إلى الحق وعدم اللين فيه.. وما يتمتع به من كبرياء وكرامة تمنعه من مداهنة رؤســائه.. ناهيك عن افتقاره إلى «واســطة» من علية القوم الذين يستطيعون تحريك الميــاه الراكدة.. ســاعد ذلك كله على بقائه فــى وضعه الوظيفى المتدنى وحاصره فى الفكاك منه.. وأصابه بحالة من اليأس والقهر.

وقد اضطرته الظروف المعيشية للعمل فى أكثر من عمل إضافى ليحاول توفير مــا يلزم من متطلباتنا وحوائجنا.. لذلك لم نكن نراه ونجلس معه كثيرا.. فما إن ينهى عمله حتى يأتى للبيت ليستريح بضع دقائق يتناول

فيها غداءه ثم يسـرع مهرولا ليلحق بعمله الإضافي يكتسـب منه بعض الجنيهات القليلة التي تسـاعد علـى مواجهة ظروف الحياة الصعبة... وعادة ما ينتهى عمله في سـاعة متأخرة من الليل..فيعود للبيت محملا بطلباتنا ولوازم حياتنا اليومية وقد أنهكه يوم عمل طويل شاق اعتاد عليه وأصبح منوال حياته اليومي.. وسـرعان ما يتناول عشاءه ويستلقي على فراشه ويخلد إلى نوم عميق.. يلقي به إلى صباح يوم جديد وعمل جديد.. وهكذا يدور يومه وتمر أيامه وكأنها حلقة مفرغة ما إن يصل إلى نهايتها حتي يعيد الكرة مرة أخرى.. .فهو يتفانى ويشـقى أملا فى إسـعادنا وطمعا أن يرانا في حال أحسن من حاله وتكون أيامنا أفضل من أيامه.

تجلس بجوار أبى إلى مائدة الإفطار شقيقتى ليلى الطالبة فى المرحلة الثانوية..وهى الشـقيقة المدللة فى بيتنا تميزها ابتسامتها البشوشة التى لاتفارق شـفتيها.. وما تتمتع به من روح متوهجة و حركة دءوبة ونفس متسامحة ساعدتها على الثراء الاجتماعى واكتساب العديد من الصديقات اللائى يلتففن حولها يحببنها ويقدرنها لما تملكه من شـخصية مرحة.. وعقلية متزنة.. وبهجة تشعها أينما وجدت.

ليلى دائمة المناقشة والاستفسار ومحاولة فهم الأمور وإدراك الواقع.. وهى كثيرة الجدل بصورة راقية.. وأحاديثها دائما شـيقة لا تبعث الملل على مسـتمعيها وتجد دائما آذانا صاغية لمناقشـاتها وحواراتها.. وهى أيقونة البيت بلا منازع وزهرته المتفتحة.. وكلنا نحبها ونقدرها وخاصة أبـى الذى يعمل دائما علـى تلبية طلباتها فى حدود الإمكان.. وتحاول ليلـى دائما بما يميزها من عقل وإدراك لظروف حياتنا أن تجنب والدنا

مزيــدا من الضغوط المادية.. رغم احتياجها فى بعض الأحيان لشــراء بعض المتطلبات والملابس الجديدة شــأنها شــأن أقرانها.. وكنت بين الفينــة والأخرى ألحظ من نظرة خفية.. نظرة تمنٍّ وحســرة فى عينيها إذا ما أعجبها حذاء أو فستان جديد وهى تدرك عدم وسع والدنا شراءه لثمنــه المرتفع الــذى ربما يتجاوز ميزانية الأســرة.. وكانت تلك النظرة متكررة نظرا لما نعانيه من افتقار فى تلبية طلباتها وأمانيها الكثيرة مثلها مثــل أية فتاة فى عمرها تنظر للحياة نظرة أمل وبهجة. .فهى تدرك أن مصاريف الدروس الخاصة التي يتكبدها والدنا شــهريا تمثل عبئاً شديد الوطأة على ميزانية البيت ومصاريفه.

وعلى الرغم من إحساسها بالدونية وسط زميلاتها فى هذا الجانب.. فإنهــا لم تســمح لهذا الشــعور أن يســيطر عليها ويحبط مــن روحها ومعنوياتهــا.. ولم تعمد إطلاقــا أن تظهر هذا الجانــب أو تضفى عليه أهميــة.. ولم تصــرح أو تلمح يوما مــا بحاجتها إلى شــىء ينقصها إلا الضروريــات القصوى..ولذلك كنا نعدها أميرة البيت بلا منازع ونحيطها بقدر كبير من الحب والاحترام.

ويجلس على الجانب الآخر من المائدة شقيقى الأصغر حسين.. تلميذ المرحلة الابتدائية البالغ من العمر عشــر سنوات.. وهو« دينامو» الحركة فى منزلنا وشعلة نشاط لا تخبو ورمز لشقاوة لا تهدأ.. فهو يعيش مرحلة يجتاز فيها الطفولة إلى طور الصبا.. وبداية إدراك الواقع والإلمام بتفاصيل الحيــاة التى كانت تمر عليه لا يلقى لها بال.. وباتت الآن تشــكل فى رأســه أسئلة وعلامات استفهام تحتاج إلى تفسير وأجوبة مقنعة يستطيع

تفهمها.. لذلك فقد كان كثير الأسـئلة عن كل ما يعجز عن تفسـيره ولا يسـتطيع إدراكه.. وكانت أسئلته واستفساراته تلح عليه فى وجود أبى المجهد دائما والذى كثيرا ما كان يضيق ذرعا بأسـئلته الكثيرة ويطلب من والدتى أن تنقذه من سـطوته وتقوم بالرد على استفسـاراته الساذجة أحيانا والمحيرة أحيانا أخرى.

وكان أبى ينظر إلى حسـين نظرة حزن وشفقة.. وينتابه فى كثير من الأحيان شعور بالذنب تجاهه.. فقد تملكه هاجس أن حسين قد جاء فى الوقت الخطأ.. وأن ولادته غلطة غير محسـوبة..و كثيرا ما ردد أمامنا خوفـه أن توافيـه المنية قبل أن يكمل رسـالته معـه ويصير رجلا يعتد بنفسـه... وقـد جعله هذا الهاجس يفرط-فى تدليلـه ويعمل على تلبية طلباتـه دون كلـل أو ملل رغم كثرتها.. ويكثر مـن الإلحاح فى الوصية به حتى أنه تمكن من نقل هذا الشـعور لنا.. وصار حسـين طفل العائلة المدلل.. وحظى بحبنا واهتمامنا جميعا.

وحـول المائدة كانت أمى تقطع المسـافة إلى المطبخ ذهابا وإيابا عدة مـرات.. لا تكاد تجلس حتى تقف مرة أخرى لتأتى بصنف من الطعام تم تجهيـزه.. أو تكمل صنفاً آخر قارب علـى الانتهاء.. و تأتى بمزيد مـن الخبز.. أو زجاجة مياه.. وهى تفعـل ذلك دون كلل أو ملل.. وما إن تجلس حتى تنهض مسـرعة للمطبخ لتعد أكواب الشـاى وتخلطه بالحليب.. وتأتينا به مسرعة.. وهكذا حالها حتى ننتهى من فطورنا.. ثم تحمل الأطباق فى عجالة بعد أن فرغنا منها وتسرع بغسلها و شطفها.

وفـى أثناء ذلك تملى على أبـى الطلبات اللازمة لاحتياجات البيت وعليه إحضارها عند عودته بعد انتهاء عمله.. وتشـدد عليه ألا ينسـى

شـيئاً منهـا كعادته كل يوم حتى لا تقع فى حـيرة من أمرها وهى تعد غذاء اليوم التالى.. وأبى يجيبها فى اقتضاب إنه قد سمع وأدرك وسوف يأتـى بالمطلوب.. ويسـرع مغادرا إلى عمله حتى يـدرك وقته مبكرا ولا يتأخر عن موعده.

وتكمل أمى برنامجها اليومى و تقوم بتجهيز ملابس حسين ومساعدته على ارتدائها وضبط الكرافتة الحمراء حول عنقه.. ووضع الكتب والأقلام فى حقيبة المدرسـة.. وتعد ساندويتشات الفسحة وتضعها فى حقيبته.. ولا تنسـى أن تلقنه بعض النصائح المعتادة للمحافظة على أدواته وكتبه وساندويتشـاته.. ثـم تلقى عليـه نظرة فاحصة لتطمئن أنه قد اسـتعد وأصبـح جاهزا لمغادرة المنزل لمدرسـته..و تودعه بقبلة على جبينه على وعد اللقاء بعد انتهاء اليوم الدراسى.

وتبـدأ أمى بعـد أن تطمئن على الجميع فى ارتداء ملابسـها على عَجـل حتى تلحق بداية طابور الصباح فى مدرسـتها الإعدادية القريبة من البيت و التى تعمل بها مدرسة لمادة العلوم.. وتأتى كل يوم مجهدة تشكو مر الشكوى من وقوفها ساعات طويلة على قدميها تشرح الدروس.. وانتقالهـا من فصل إلى آخر.. صعودا ونزولا لدرجات سـلم المدرسـة.. ناهيـك عن طابور الصباح.. ومتابعة التلميذات فترة الفسـحة.. وذهاب صوتهـا فى محاولاتها توصيل المعلومات وسـط ضجيج وعدم مبالاة من الطالبات بالشرح والفهم.

ودائما ما تقص علينا من النوادر والحكايات التى تحدث فى المدرسة مـع الطالبات ومدرسـاتهن أو مع بعضهن البعض.. مـن قلة احترام..

وتربية مفقودة.. وعجز إدارة المدرسة على التصرف حيال مواقف كثيرة تَجدُّ كل يوم لم تكن توجد على أيامهن.. وكم أبدت استغرابها وعجبها من هذه الأحداث وترحمها على أيام مضت لم تشهد مثل هذا .

وتغيب عن المائدة شقيقتى الكبرى التى تزوجت منذ عامين وأنجبت لنـــا «آية» التى تملــئ بيتنا حبا ودفئا عند زيارتهـــا لنا مع والدتها فى نهاية الأسبوع.. وننتظر جميعا هذا اليوم الذى يجمعنامعاً ونسعد بالدفء الأسـرى ولمه العائلة.

وتمـــلأ «آيـــة» الصغيرة التى تجـــاوزت العام بقليـــل حياتنا ضحكاً وبهجة وسعادة.ويســـعد بها جدها وترتفع ضحكاته مجلجلة على غير عاداته اليومية.

على الرغم من زواج شـــقيقتى منذ أكثـــر من عامين فإن والدى مازال غارقـــا فى الديون التى اســـتدانها حتى يســـتطيع تجهيزها واســـتكمال متطلبات زواجها.. وقد عايشته خلال هذه الفترة وهو يعانى أيما معاناة مـــن متطلبـــات الزواج الكثيرة ومـــا يتبعها من مصاريـــف خاصة بالفرح والمعازيم وغير ذلك مما يلزم كل بنت فى عرسها.

وكنت أسمعه وأراه هو ووالدتى يتهامسان أحيانا ويتصايحان أحيانا أخرى حول تدبير مايلزم من الأموال لشراء ما يلزم شقيقتى فى جهازها واستكمال زواجها.

.. وقد عانـــى والدى ووالدتى الكثير خلال هذه الفترة العصيبة التى مـــرت علينا..حتـــى إن كثرة الدين والتفكير فى ســـداده قد أرق نومهما كثيرا وكاد يفســـد فرحتهما بزفافها ويوم عرســـها..وقد حمدنا الله كثيرا

أن أتم عليهــا الزواج بخير وذهبت إلى بيتهــا الجديد مع زوجها.. وما زال والــدى بعد عامين من زواجها يرفل تحت وطأة الدين المتراكم عليه ويحاول جاهدا أن يعمل على سداده فى موعده.

أســرة صغيرة بسيطة مثل كثير من أســر مجتمعنا المصري.. التفكير فى تدبير أمور معيشــتهم يشــغل الحيز الأكير من وقتهم.. و ســاعات العمل المتواصل تقضــى على الجزء المتبقى من حياتهم.. .تدابير الحياة تشغل نهارهم.. والفكر فى الدين يؤرق نومهم.. ومع ذلك فإنهم يجدون بعض الوقت للتسرية عن نفوسهم.. و بعض الزيارات العائلية و اللقاءات الأسبوعية التى تضفى على حياتهم بعض البهجة والسرور.

تمضى بنا الحياة.. تربط بيننا أواصر المحبة والرحمة وننعم بصحة وهدوء بال واســتقرار نحمــد الله عليه.. وتمتلئ قلوبنــا إيماناً تزداد به نفوســنا قناعــة ورضاء بالواقع على أمل أن تغــير الأيام بعض ملامحه الصعبة ويمن الله علينا بالفرج القريب.

خرجــت فى صباح هذا اليوم بعد أن ودعت أمى وســلمت على أبى وإخوتى.. وأخذت طريقى المعتاد إلى جامعتى فى وســط القاهرة حيث أدرس بكلية الحقوق فى عامها الأخير.. ولا يشــغل فكرى سوى اجتياز امتحانات هذا العام حتى أســتطيع الالتحاق بعمل يساعد على تخفيف الحمل عن والــدى.. وكيفية بداية حياتى العملية بعد التخرج وحصولى على شهادة الليسانس..

يــوم اعتدت مثله كثيراً ولم أكــن أدرى أنه يوم غير عادى ليس فى حياتى فقط ولكنه فى حياة كل المصريين..وآخر ما كان يجول بخاطرى

أن يكون هذا يومى الأخير بين أهلى وأحبتى.. وأن مائدة الإفطار التى جمعتنا لم تكن سـوى وداع أخير لعائلتـى.. و نظراتهم لى وأنا جالس بينهم.. وشعور جارف يتملكنى بحبهم.. وخفقان قلبى وشجن يملأنى.. ومبادلتهم جميعا الحديث والمشاعر الدافئة.. لم تكن إلا لحظات وداع.. لم نكـن ندركهـا وكانت تحركنا إليها مشـاعرنا بطريقـة عفوية غير محسوسة .

غاب عنى أن نظرة أبى وهو يتفحصنى وهو خارج إلى عمله إنما هى نظرة وداع يملأ بها عينيه من ملامح وجهى.. و لهفة أمى وهى توصينى وتشـدد فى وصيتهـا أن آخذ حـذرى وأهتم بنفسـى وأراعى حوادث الطريق.. لم تكن وصية بقدر ما هو إحساس جارف يتملكها أنها تلقننى آخر كلماتها فى ساعاتى الأخيرة.. وقد أدركت الآن محاولة شقيقتى أن تبدو مرحة رغم نظرة الحزن التى تتملكها على غير العادة.. وتصريحها

أنها تشـعر بانقباض قلبها ولا تعرف سـبباً لذلك.. وتلميحها أنها تخشـى مكروها لأحد.فى العائلة أو الأسـرة.. ونهى أمى لها على هذا القول وطلبها أن تذكر الله وتنسى هذا الأمر وأن الله سوف يسترها وييسير كل شيء طبيعيا كالمعتاد.

اسـتوقفتنى نظرة حسين شقيقى الأصغر وأنا أطبع قبلة على جبينه عنـد خروجـى من المنزل.. فقـد رأيت فى عينيه حيرة..وعلى لسـانه كلمـات مكتومـة.. وكأنه أراد أن يصرح بشـيء يشـعر به غير أنه لا يدرك معناه ولا يستطيع التعبير عنه.. فقد علق برقبتى على غير العادة

وشعرت بحرارة أنفاسه.. وسمعت دقات قلبه تتسارع..غير أنى لم أدرك إحساس طفل ربما يملك حاسة سادسة حيال أحداث اليوم.

وصلت الكلية والتقيت عدداً من أصدقائى.. وأدركت منذ اللحظات الأولى أن هناك شيئاً غير عادى يحدث بالجامعة.. وأن حال طلابها ليس حالهم المعتادة.. فالكثير منهم يلتف حول أحد الزملاء ممن اشتهر عنه القيادة فى الجامعة ويستمعون له فى إنصات وإيماءات بالموافقة.. وتجمعات أخرى لكثير من الطلبة يحملون أعلاما وشعارات يلوحون بها استعدادا للخروج فى تظاهرة تنطلق الى خارج الجامعة.

وتجمعات فى كل مكان وتظاهرات تنطلق من كل كلية.. لتتجمع الحشود فى مسيرة ضخمة تجوب شوارع القاهرة وتلتقى مع مسيرات وحشود انطلقت من كل مكان فى أرض مصر وتوحدت معا لتشكل حشدا هائلا اتخذ طريقه زاحفا نحو ميدان التحرير وسط القاهرة.

إنه يوم ٢٥ يناير عام ٢٠١١م.. يوم الثورة المصرية العظيمة التى قام بها أبناء هذا الشعب للتحرر من العبودية وقهر الظلم والطغيان الذى قبع على صدورهم وكمم أنفاسهم لعقود طويلة.. خرج أبناء هذا الشعب الأصيل فى مسيرات سلميه رافعين شعارهم «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية».

كنت قد قرأت منذ عدة أيام عبر مواقع التواصل الاجتماعى دعوات للحشد والتظاهر خلال هذا اليوم الذى تحتفل فيه الشرطة المصرية بعيدها.. وتقام فيه احتفالات كبيرة فى جميع محافظات مصر تمجيدا لذكرى الموقف البطولى للشرطة المصرية فى دفاعها عن محافظة

الإسماعيلية ورفضها تسليم أسلحتها للاحتلال البريطاني ومغادرة المحافظة إلى القاهرة.. وقرار رجالها البواسل الصمود يوم ٢٥ يناير عام ١٩٥٢م في وجه مدافع الاحتلال.

ووقف ضباط وجنود الشرطة في الإسماعيلية يدافعون ببسالة عن مبنى المحافظة غير مبالين بمدافع الإنجليز التي صوبت نيرانها نحوهم ليسقط أكثر من خمسين شهيدا ومئات الجرحى.. و لم يستسلموا ويسلموا أسلحتهم الخفيفة التي دافعوا بها وخاضوا معركتهم ضد مدافع جيش الاحتلال الغاشم حتى نفدت ذخيرتهم.

وقد اتُخذ هذا اليوم عيدا للشرطة تخليدا لبطولة رجالها في محافظة الإسماعيلية.. و تقام فيه الاحتفالات وتكرم الشرطة إفرادها الذين أبلوا بلاء حسنا في واجباتهم.

قرأت وسمعت كثيرا عن هذه الدعوات للحشد والخروج في تظاهرات يوم ٢٥ يناير مطالبة ببعض التعديلات الوزارية ورفع سقف الحرية وإعلاء شعار «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية».

غير أني لم أدرك مغزى اختيار عيد الشرطة للقيام بهذه التظاهرات والمطالبة بالإصلاح.. وأرجعت ذلك إلى استغلال عيد الشرطة لضمان حيدة رجالها في عيدهم ومحاولة كسب تأييدهم للمتظاهرين في طلباتهم السلمية للحصول على حقوقهم الضائعة.. أو ربما أراد المتظاهرون أن يبلغوا رسالة لرجال الشرطة برفضهم احتفالاتهم لخروجهم عن مسارهم الوطني والاجتماعي ووقوفهم مع سلطان جائر ضد شعبه وأبناء وطنه.. وجنوحهم عن مسار سلفهم من أبطال شرطة الإسماعيلية.

غــير أنى لم أهتــم كثيرا بالبحث عن الســبب الحقيقى وراء اختيار هــذا اليوم والدعوة للاحتشـــاد.. وكذلك لم يشــغل فكرى الوقوف على حقيقــة هذه الدعوات وهدف هذه التظاهرات.. فأنا لم أهتم يوما بالأمور السياســية ولم أكن من زعماء الطلبة الذيــن يأخذون على عاتقهم عبء حشد الطلاب للمطالبة بحقوقهم ويعرضون أنفسهم للملاحقات الأمنية.. وربما يتعرض مســتقبلهم للضياع.. فقــد كنت أرى ذلك دربا من دروب العبــث والتضحية بلا جدوى.. وكان اهتمامى ينصب على حصولى على مؤهلى حتى تتاح لى فرصة عمل تمكننى من مســاعدة أبى فى مشــواره ورفع مســتوى عائلتى المادى حتى نستطيع مجابهة متطلبات الحياة.. شأني في ذلك شأن كثير من طلاب الجامعة.

لذلــك لم أهتم يومــا بأمور السياســة والخوض فى دروبهــا والانضمام لأحزابها ورجالها.. وهذا لا يعنى أننى لا أعانى الأمرين مثلما يعانى الكثير من أبناء الطبقة المتوســطة فى هذا البلد.. ولكنى وعيت منذ نعومة أظافرى أن السياسة لا تدفع ظلما ولا تكسر قيدا أو تمنح حرية فى هذا البلد.

غير أنى أدركت أن الأمور فى هذا اليوم تختلف عمًا ألفته فى الأيام الماضية.. وهو ما دفعنى لمحاولة الإلمام بما يدو ر حولى واستبيان الدوافع الحقيقيــة لهذه التظاهرات التى احتشــد لها آلاف من زملائى وملايين من أبناء وطني..فقد أدركت مما حولى أن اليوم لن يكون كغيره من الأيام المعتادة.. فهو يوم فارق فى حياتنا.. وفى تاريخ مصر.

انضممت إلى زملائى واستمعت لهم ولامس كلامهم قلبى ونكأ جروحا مازالت تنزف.. فالشــعور بالظلم والقهر إحساس مؤلم وقاس.. وجميعنا

قد اجتاحه هذا الإحساس فى ظل نظام قبع على قلوبنا أكثر من ثلاثين عاما أذاقنا من القهر والجوع والمهانة ما أوردنا إلى ما نحن فيه.. وجعل بـــركان الغضب ينفجر فى صدورنا ويدفع بنا إلى رفع هذا الظلم والنيل من الظالمين.

مَثُلَتْ أمام عينى معاناة شقاء والدى.. ونظرات الحسرة تطل من عين شقيقتى.. وفقر ودين يلازمنا أيام حياتنا.. وقهر يتملكنا.. وحياة فقدت آمالها وأحلامهـــا.. فهناك ضياع العمل والأمل فى غد مشـــرق.. حرية مفقودة.. وسوط يلهب ظهورنا.. ولجام يكمم أفواهنا.

تفجرت فى قلبى ثورة لم أعِ وجودها وأفطن لهذه اللحظة الفارقة التى تنتظرهـــا لتنطلق معبرة عما يجيش فى صدرى.. تلك هى الثورة المصرية التى بدت بوادرها هذا اليوم .وانطلقت هادرة من قلوب كل المصريين.. ربما غابت بعض الوقت.. وحجبت تحت مسميات نعيشها عملت على محاصرتهـــا ومحاولة وأدها فى مهدها.. وفى لحظة باغتة يثور بركانها وينطلـــق لهيبها وتنفث حمم غضبها وتحرق كل ظالم جبار خيل له أنه تســـيد هذا الشـــعب الحر وتفرعن مع كهنته واتخذوا من رعيتهم عبيدا يســـوقونهم كيفما شاءوا.. ..هى ثورة الشـــعب المصرى ولحظة انطلاقها وتحطيم قيوده.

أدركت أن هذا اليوم هو يوم التحرر من عبودية هذا النظام..يوم الكرامة واسترداد مصر بلادنا التى سرقت من بين أيدينا واحتلها حفنة من الفاسدين.. نهلـــوا خيراتها وتقاسمـــوا ثرواتها غير عابئين بأبناء الشـــعب المصرى الذين ينزحون تحت فقر مدقع ويعانون شظف العيش وهدر الكرامة.

ثار فى قلبى بركان الغضب وانفجر سـخطه علـى نظام هذا البلد.. وأدركـت أن الثورة تسـكن داخلنا وأننا جميعا نسـير بهـا.. تغلى فى صدورنا.. وتوقد عقولنا وتنتظر لحظة تنطلق بنا تدفعنا ونلوذ بها للوقوف ضد الظلم والطغيان دون أن ندرك سيطرتها علينا وتملكها قلوبنا.

خرجـت مع زملائى من الجامعة علـى رأس تظاهرة كبيرة والتقينا عدد من التظاهـرات التى خرجت من كل ربوع مصر.. وتوجهنا صوب ميدان التحرير حيث نقطة التقاء التظاهرات التى دعى إليها لنقف وقفة سـلمية مطالبين بحقوقنا.. رافعين شعاراتنا.. نهتف معا ضد نظام فسد وأفسـد.. ونطالب بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية.. رافعين أعلام مصر خفاقة عالية ومعها شعارات ثورتنا ومطالبنا.

ومـا هى إلا لحظات قليلـة حتى فوجئنا بطلقـات الرصاص تنهال علينا من كل صوب وقنابل غاز تملأ الميدان و ضباب من سموم وخراطيم ميـاه.. وجحافل من قوى الظلام تعوق مسـيرتنا وتحاول عرقلتنا ومنعنا من المطالبة بحقوقنا.. وتستخدم معنا أقسى أنواع العنف المباح منه وغير المباح.

لم تفل عزيمتنا أو نهاب رصاصهم.. أو ترهبنا قنابلهم .واستمر تدفق حشـودنا وسـلمية مطالبنا وقد زاد إصرارنا فى انتزاع حقوقنا واختراق صوتنا لجدار الصمت حتى يصل إلى من بيده القرار .

وإمام إصرارنا على اسـتكمال مسـيرتنا وهتافاتنا الهـادرة وإرادتنا القوية تهاوت قوى الظلام وحماة الطغيان وزلزلت الأرض تحت أقدامهم واهتزت عروش سـادتهم وتهاوت قصور طغاتهم.. فما كان منهم إلا أن

يحاولوا بكل ما أوتوا من قوة التمسـك بما تبقى لهم ومحاولة المحافظة على النفس الأخير.. فعمدوا للتعامل معنا بكامل طاقتهم وقوتهم ورشقونا برصاص أسـلحتهم وقنابلهم واجتاحونا بسياراتهم المصفحة.. واندلعت حرب بين إرادة شـعب أراد أن يعيش ويقتنص حريته التى سلبت منه عنوة.. وجحافل ظلم وطغيان وفرعون وجنوده يملؤهم كبر وتجبر.

سقط المئات من أبناء مصر بين شهيد وجريح.. وسالت الدماء الذكية تملأ الميادين.. تمنحنا القوة والإصرار لاستكمال المشوار وإنجاز ما بدأناه.. وتقوى إرادتنا ويزداد تمسـكنا بالمطالبـة بحقوقنا التى خرجنا للحصول عليها.. وكلما سقط شهيد حملناه على أكتافنا وواصلنا مسيراتنا الهادرة ترهب جحافل الظلام..وترعش أقدامه مما زاد من سـعرتهم وبطشـهم واستعمالهم الجائر لأسلحتهم للنيل من شباب هذا البلد.

ارتفع صوتى هاتفا.. ويردد خلفى أبناء وطنى.. شعاراتنا.. أحلامنا.. آمالنا.. وشعور جارف يتملكنا أن مصر عائدة إلينا.. وأن اليوم موعدنا.. وأنه يوم فارق فى حياتنا ومستقبلنا.. و يلوذ الأمل فى الأفق وأرى طائر الحريـة يحلق.. وشـعبا ينطلق محطما قيوده.. ومسـتقبلا واعدا ينتظر أبناءه.

فـى لحظة الانتصـار.. تجتاحنا قوى الظلام.. دخـان القنابل يملأ المكان.. وأزيز الرصاص يصم الآذان.. وطلقة غادرة تحطم ضلوعى وتنفذ إلى قلبى تفجره.. وتسيل الدماء غزيرة.. تروى أرض مصر الطيبة.

تهتز الصور أمام عينى.. يترنح الجسد.. يتهاوى.. وصرخات خافتة أسمعهـا.. اسـتغاثات..وأصدقاء حـولى يحملون جثماناً فانيـاً.. علهم

يدركــون جرحــه وإيقاف نزفه.. وهــم غافلون أن الإصابــة قاتلة وإنها لحظاتــى الأخيرة التى أودع فيها أرض وسمــاء بلدى.. ويتراقص قلبى الذبيح طربا على أنغام هدير أبناء وطنى وهتافاتهم بشــعارات ثورتنا.. و مصر تحتضن أبنائها وقد نزعت قيودها وعبرت أبواب الحرية.

أرادوا أن يقتلــوا الثورة فى قلوب أبنائهــا.. فأحيوها فى قلوب كل المصريين.. وخرج الملايين من أبناء الشــعب المصرى فى قلب كل منهم ثــورة على ظلم طغى وطاغ بغى.. وأملا وحلم يتراقصان فى القلوب بات تحقيقهما وشيكا.. «وشعباً أراد الحياة.. فلابد أن يستجيب القدر».

خلدت إلى سُــبات عميق.. بعد أن تنفســت نســيم هواء الحرية.. وتنطلــق روحى إلى فضاء رحب.. وتغلق عينى تحتضن صورة أبناء بلدى وقد تكاتفوا وتلاحموا وأبهروا العالم من حولنا.. وبســمة رضا أغادر بها وطنًا أحببته وأموت من أجل أن يحيا.

يخرج شــعب مصر عــن بكرة أبيه مودعا شــهداءه وقــد حُملوا فى نعوشهم وقد اصطفت صفوفا طويلة تحملها الأكتاف.. يلتف حولها أبناء شــعب طيب يجتاحه غضب وحزن على شــباب خرج مســالما للمطالبة بحقوقه وحريته وأجيبوا برصاصات تصوب إلى رءوسهم وقلوبهم.

تحمل نعوشنا وســط أمواج من البشر.. وتحلق أرواحنا فوق ميادين الحريــة.. وتختلــط دموع المودعين مع زغاريد تنطلق تزف هذا المشــهد الحزين.. وألمح أبى يتقدم المســيرة.. تنساب دموعه من خلف نظارته.. ويكسو وجهه حزن دفين.. يسير فى وداع ولده بخطى متثاقلة..وقد دفن حلمه الذى طالما عقد عليه الأمل أن يحميه من غدر الأيام ويحمل عنه خطوبها ونوائبها.

وأرى أمي ترفل في السـواد وقد كساها الإعياء.. ولا تستطيع قدماها أن تحملهـا في مسـيرتها الأخيرة معي.. .وبكاؤهـا يصاحبه نحيب.. وحولها صُحيباتها يهدأن من روعها و يشـدنن من أزرها.. وهي تنظر إلى السماء تارة ويتعلق نظرها بالنعوش تارة أخرى.. ولسان حالها يقول إنـه ولدى وهذا يومه.. فهذا عمر أودعـه.. أمل وحلم أفقدهما.. وديعة غالية تسترد.

وبين المودعين شقيقي الأصغر حسين وقد حمل في يده علما صغيرا وبيده الأخرى شعارا لثورتنا.. يخطو خطى ثابتة.. ونظرة ثاقبة للأمام.. وكأنما يختزل حاضره ومستقبله.

ولكل ظالم غدار.. حذار من شعب جبار.. قاهر صليب وتتار.. أضاء عصور ظلام.. فلا يغرنك صفاء بحر.. تموج في أحشائه ثورة.. أمواجها تقتلع.. ودواماتها تبتلع.

ألا يا نفس استكيني.. وارقدى في سلام أيتها الروح الحائرة.. أمي.. أبي.. إخوتي.. أهلي.. أحبائي.. دماؤنا لم تذهب هباء.. وأرواحنا لمصر فـداء.. وإن أجدبت أرضها وتصحرت.. وملأ الشـوك والصبار ربوعها وصحراءها.. فدماؤنا تسـيل غزيرة تروى حبات رملها تخصب طينها.. تبعث روحها وتستعيد عافيتها وتمتلئ ميادينها زهورا ورياحين.. وتعود بسمة أهلها ويزدهر مستقبل شبابها.. فأرواحنا ودمائنا رخيصة نقدمها فداء لأمنا وطننا مصر.

«**تمت**»

الهروب

الهروب

أدركت منذ اللحظة الأولى التي التقيتها بها أنني على مشارف مرحلة جديدة من حياتي أودع معها عمرا مضى وإنساناً عشته سنين طوالاً تعودته وتملكني حتى صرنا مزيجا واحدا لا يفصل بيننا فاصل.. عمر قضيته أرتدي جلباب العقل والوقار.. تقمصته وعايشته وتعاملت بمنطقه وكأنه قناع أردت أن يراني الناس من خلاله ويقر في نفوسهم أنني هذا الكائن الآلي الذي يتحرك ويفكر وينفذ بديناميكية منظمة وحكمة لا يحيد عنها ولا يستطيع أن يتجاوزها.. وقد كدت أصدق نفسي أنني ذلك الشخص وتلك هي صفاتي.. وهذا مسلكي ودربي.

عشت حياتي حتى قارب العمر أن ينتصف.. وأصبحت بين الأصدقاء و الأهل ذلك الشخص الحكيم ذا العقل الرزين والفضيلة التي لا يعكر صفوها هبوب رياح أو انزلاق إلى هوى.. عشت هذا الإنسان و تداخل قناع الفضيلة ولباس الحكمة مع جلدي حتى أصبحت لا أستطيع نزعه أو إلقاءه بعيدا عن ذاتي.. حتى أيقن من حولي وكدت أصدق أنني ذلك الرجل.

حاولت كثيرا التحرر من ردائي و ترك ذاتي بلا أقنعة تجوب شوارع المدينة تتلصص وتعشق وترتكب الحماقات وتدخل أغوار التجارب والنزوات.. لمَ لا وأنا أعيش في مجتمع من الشياطين التي تتعامل مع الحياة باحتراف وقدرة في التغلغل في شعابها وأروقتها.. وتحصد ملذاتها وخيراتها.. وأنا قابع في مكاني برداء القديسين أشاهد شريط

الحياة ولاعبيها وهم يلهــون ويغامرون ويقضون يومهم وليلهم يغترفون من سكرات الحياة وملذاتها ولا يسعنى سوى أن أعبس وأشيح بوجهى وأترفــع عن أفعالهم وأقــول فيهم ما قاله «مالك» فــى الخمر.. ..وكأن هــذا القناع قد تغلل إلى عقلى وقلبى فأصبــح حاجزا بينى وبين الحياة وملذاتهــا.. وأقام من نفســه واعظا وقيدا يحوطنــى ويعمل على للمتى عند ظهور بادرة خطأ أو هفوة من هفوات البشــر التى تصاحب الإنسان وتجعله كائناً متفردا عن غيره من الكائنات .

أكاد اليوم أجزم أنى لست ذلك الشخص الذى كنته منذ أيام قليلة.. فأنا جالس على شــاطئ بحر مدينة حبيبتى الساحلية أنتظرها أن تأتى مــن خلفــى كما تعودتها.. حيث نقضى معا إجــازة قصيرة اقتنصناها مــن حياتنا الرتيبة التى نحياها وكل منــا بعيد عن الأخر.. نطفئ معا لهيب حب اشتعلت جذوته حتى أطلق لغة الجسد وصرخاته.. ونعيش أوقاتنــا نغترف مــن اللذات.. ونشــوة اللقاء.. نتراقص معــاً.. تتلاصق أجسادنا وتتباعد فى تناغم فطرى يزيد من وقعه وجاذبته عبقها الفواح.. وموســيقى تدب تسلب الألباب وتترك الجســد بلا عقل.. يغترف من جنون العشق والرغبة.. وتشهد جدران شاليه الحب الذى تمتلكه على شاطئ البحر أجمل أيام عشتها.. وأمتع لحظات مررت بها.

ألقيت جانبى جلباب الفضيلة.. ذلك الجلباب البالى الذى صاحبنى عمــرا كاملا حتى كدت أفنى وهو ملاصق جســدى.. وأقتلع قناعا آلمنى كثــيرا وقيدنى وكاد يدمى قلب.. وخشــيت دوما نزعه مخافة أن أقتلع معه ذاتى وفكرى.. غير أنى وجدت راحة وصفاء نفس وهدوءًا تملكنى..

وكأني في استراحة محارب.. عاش حياته يجاهد نفسه ويشق عليها حتى كاد يمزقها ويسلبها حريتها ويجعل منها أسير أفكار وعادات بالية عفا عليها الزمن.. و كأنها أساطير الماضى البعيد فى حكاوى أمهاتنا وأجدادنا تروى لنا مع حكايات الشاطر حسن.. وأمنا الغولة.

تملكنى الخوف أن يصيبني الضعف وأحن إلى قيدي.. فأنا كعصفور أمضى حياته حبيس قفص ذهبي.. يشيع البهجة فيمن حوله.. وقلبه يتمزق فى محبسه.. يغرد أعذب الألحان المزوجة بالأسى والشجن.. يطرب لها السامعون.. وتملئ نفوسهم بهجة.. ظننا أنه يصدح موال الفرح.. ويظل هذا حاله طالبا الحرية والانطلاق بعيدا عن حياة ليست حياته.. وقيدا ألجم ملكاته.. والجميع منصرف لحياته.. لا يكلف أحدا نفسه عناء التفكير فى هذا العصفور الضعيف. .ويتناسى الإنسان إنسانيته وضميره من أجل متعة النظر إلى عصفور يئن فى محبسه.

خشيت أن أكون ذلك العصفور الذى قضى عمره باحثا عن الحرية.. وبين الحين والآخر يعمد نشر أجنحته ونفضها داخل قفصه.. وكأنما يُمنى نفسه بلحظة حرية.. أو انتظار هذه اللحظة.. ويحاول أن يعد نفسه لها ويؤكد أن أجنحته مازالت قادرة على حمله والابتعاد به عن هذا القيد الذى كاد يقضى فيه نحبه.

حاولت نزع قيدى وترك الماضى المقنع ولباسه البالى الذى كدت أفنى فيه وينزوى معه عمرى.. قذفت بقناعى وجلبابى إلى عرض البحر حيث تتقاذفه الأمواج وتأخذه بعيدا.. وأخذت أنظر إليهما وهما يطفوان ويغوصان فى قلب الموج.. وكأنهما تجسيد لتمثال خيال المآتة

«ذلــك الكائن الهلامي الذى يخيف طيور الحقل التى تحاول النيل من المحصــول فى أرضه قبل نضجه والقضاء عليه وترك قشــوره بعد الفوز بلبه.. وقد تفتق ذهن الفلاح القديم وأصحاب الأراضى عن هذا الاختراع وجعلوا منه حارسا على أراضيهم وحامى محاصيلهم.. يقف وسط الحقل ينشــر الرعب فى قلــوب الطيور فى غزواتها المتكــررة.. ويميل يمينا ويســارا مع حركة الريح فيدب الخوف والفزع فى تلك الطيور الصغيرة خشية أن تكون حركة إنسان يتوعدهم وينتظرهم للفتك بهم.

قفــز «خيــال المآتة» إلى ذهنى فجــأة وأنا أرقب قناعــى و جلبابى اللذين ظللت أرتديهما طــوال حياتى وهما يروعاننى ويبثان الرعب فى قلبــى بنظراتهما الحادة وعقابهما الوجدانى كلما ضُبط محاولا الاقتراب أو تجاوز خط المحرمات والممنوعات.

أطلت النظر إليهما ورمقتهما بنظرة تشَــفٍّ وأنا أراهما وقد أخذ الموج يبتعد بهما وهما يغوصان تارة ويطفوان تارة أخرى وكأنهما غريق يجاهد للبقاء حيًّا وسط أمواج عاتية لا تفيد معها المقاومة .

عمــدت النظر إلى عين ذلك القناع المخيف الذى ملأنى رعبا ســنين طــوالاً وهو يصارع الموت.. فلم أجد تلك النظرة الحادة.. والوعيد الذى كان يتوعدنــى إيــاه .ورأيت مكانهما نظرة اســتكانة وضعف..وقناعاً ينازع أنفاسه الأخيرة.. ولم يعد يكترث أو يبالى بشطحاتى وخطاياى.

نزعــت القنــاع عن كاهلى كثعبان ينزع جلده فــى بداية الربيع بعد فترة من بيات شــتوى طالت به حتى كاد يظن أنه لن يفيق من نومته.. وها أنا أنزع عنى لباســا ضقت به وضاق مــن تمردى.. وافترقنا كل إلى

طريق.. ونظرة وداع غير نادمة.. بل نظرة أمل وتمنٍّ بذهاب بلا عودة.. فقد أدركت الآن أننى أصبحت حرا.. وأزيحت عن كاهلى وصاية ضقت بها طويلا.

تذكــرت عصفورى الجميل حبيس القفــص الذهبى وعمر قضيناه.. نتبادل معا نظرات ذات مغزى.. ولســان حــال كل منا يقول للآخر.. كلانا فى القفص ذاته فمتى الانطلاق؟

هــا هى لحظة الحرية قد حانت.. فمنــذ أن التقيت «كارمن» أدركت على الفور أن القناع لم يعد يجدى وأن ما عشت أكابده على مدار سنين حياتى آن له أن ينتهى.. ففى دقائق معدودة اســتطاعت كارمن أن تخلق بداخلى شــعورا جديداً.. وأطلقت قوة كامنة ظلت مكبوتة على مدار عمرا عشــته أغالبهــا وأقهرها.. و نبضات حية لم أكــن أدرك أن هذا القلب الذى جففت الأيام منابع عواطفه وأشــواقه قادر على الخفقان والانطلاق فى عالم حر لا تكبله قيود الماضى ولا يستمع لصوت عقل أو يأخذ بمنطق.

شــعر الثعبان بالدفء بعد شتائه الطويل.. وركن إلى حضن يحتويه ويضفى عليه من حنانه زادا يقويه ويعينه على اســتمرار حياته بثوبه الجديــد.. ومواصلة رحلته التى توقفت فــترة طويلة وكادت تنتهى به إلى حيث يقبع فى مكانه.

التقيت كارمن صدفة لم أســع لها.. ولم أقصد طريقها.. فكثيرة هى صــدف الأقــدار التى تغير خطط حياتنا وتفجر مشــاعر خافية.. تخلق آمالا وتوقظ أحلاما.. تحرك الإنسان وتدغدغ مشاعره.. بل تقلب حياته رأسا على عقب.

عرفت كارمن منذ نعومة أظافرنا.. فهي ابنة الحي الذى تربينا وترعرعنا فيه أطفالا ثم صبية وشباباً.. حتى فرقتنا الأيام وذهب كل منا إلى طريقه.. فقد عايشتها فتاة جميلة.. ساحرة العينين.. ممشوقة القوام.. لها نظرة لعوب تخترق العقول وتصيب القلوب.. فتستعر نارها وتتأجج حرارتها.. فقد كنت أكبرها بعدة أعوام تتيح لى إدراك مغزى النظرات واللافتات.. غير أنى كنت قد ارتديت قناعى منذ عهد بعيد.. فلم يتح لى أن أشارك شباب الحى إعجابهم بها.. والسعى لنيل رضائها.. ويبدو أنى كنت بعيدا عن خططها.. وعَمدت إخراجى مبكرا من عالمها وحياتها الزاخرة بالمحبين والمعجبين الذين تهوى قلوبهم فى حبها كفراشات تتهاوى فى نيران مستعرة غير مدركة أى مصير ينتظرها وأى حتف تلقاه.

أسرت كارمن العقول والقلوب وهى فى ريعان الصبا.. حتى باتت حلم كل شباب الحى.. وبات الجميع يسعى إليها يطلب ودها ويتمنى رضاءها.. ومع كثرة الفتيات الجميلات من جيراننا فى تلك المرحلة.. فإن كارمن تظل الزهرة البرية التى يفوح عطرها ويأخذ بالألباب جمالها.. ينتشر عبقها ويزداد بهاؤها ويذاع صيتها.. فهناك دائما فتاة تسلب العقول وتمتلك القلوب.. ويظل ما حولها وصيفات وهى مليكتهن المتفردة والمنطلقة فى سماء الحب تجتذب إليها عشاقها ومحبيها.. والكل يمنى نفسه بمنالها والفوز بقلبها.

ويبدو أن كارمن كانت تدرك تفردها وأنوثتها الطاغية وتشعر بلسعات النظرات الخاطفة من شباب الحي وتعمل دائما على إشعال جذوة هذه

النظـرات بدلال أنوثتها الطاغية ونداءات عيونها الناعســة.. وغمازات وجنتيها التى تضفى عليها جمالا وتزيدها جاذبية.

وقفــت كما تعودت دائما فى صفوف المتفرجين.. لا أتقدم أو أحاول أن أكــون مع أبطــال لعبة الحب المبكر الذى يصيــب القلوب الخضراء فيملؤها حياة وأحلاماً ويضفى على صاحبها نشوة وعذوبة.. وقد حاولت كثيرا النزول إلى أرض الملعب للمشاركة و اقتناص الفرصة والفوز بجائزة المباراة والشعور بلذة المنتصر .غير أن التراجع فى اللحظات الأخيرة كان حليفى.. وزجرة من قناع الخوف الذى أرتديه كانت كافية بإخراجى من الملعب والتقوقع مع ذاتى والاكتفاء بالمشاهدة والتمنى .

مضت أيام الصبا على هذا المنوال.. فتاة الأحلام أمامى ولا أستطيع الوصــول إليها أو مبادلتهــا النظرات والكلمــات.. ومطارحتها غرامى وأشــواقى.. وهكذا استمرت الحال.. رغبة وتمنٍ يتملكاننى أن أفوز بها وأمتلك قلبها وجسدها.. وقناع زائف يقف حائلاً يباعد المسافات ويزيد الهوة بيننا.

تفرقت بنا السبل وذهب كل منا إلى طريقه.. تركت حبيبتى مدينتنا لتعيش فى مدينة مجاورة مع أسرتها.. حيث عمل والدها الذى يقتضى التنقل كل بضع سنين من مدينة إلى أخرى.. وانقطعت أخبارها.. وكادت ســتائر النســيان تحجب ذكراها إلا من بعض اللحظات التى تستدعى ذكر الماضى مع الأهل أو بعض أصدقاء الطفولة والصبا القليلين.

تزوجت وأنجبت.. وواصلت الحياة مشــوارها معى.. أسير قناعى.. يلازمنــى دوما.. حتى توحدت معه وأصبحت لا أدرى أى الشــخصين

أكــون.. فقد امتزج قنــاع الفضيلة والحكمة بنظراتــه الزاجرة وملامحه القاسية..بشــيطان ذاتــى الذى أراد أن ينطلق محطمــا أغلاله..محررا معصميه من قيودا كبل بها وعاش تحت نيرها سنوات طوالاً.

وقفت حائرا بينهما.. فضيلة مرغم عليها.. وشيطان يتوعدنى بحياة حُرمــت لذتها ومتاعهــا.. وكدت أتمزق بين طرفى نــزاع يتنازعاننى.. وأسير بينهما مسلوب الإرادة غير قادر على اتخاذ قرارى.

عشــت حياتي ارتدى ثوبا غير ثوبى وأسكن شخصا غير شخصي.. تزوجت امرأة فاضلة حاولت قدر الإمكان أن أجمع فيها خصالاً أحببتها وســعيت أن أجدها فترة شــبابى فيمن تمنيت عشــقها.. تزوجنا زواجا تقليديا لم يتخلله حبا ولم تشــعله أشــواق.. فكان طريق حياة واستكمال مرحلة عمرية لابد من إدراكها حتى أنخرط فى نســيج المجتمع وأصبح ترساً فى عجلته.. يقوم بعمله نهارا ويخلد إلى بيته ليلا.. فى حركة دءوبة خالية من المشاعر التى تضفى على الحياة نوعا من التوهج والحيوية.

دامت العشرة بيننا وأنجبنا ثلاثة أطفال.. بنتاً وولدين.. عمدت أن أربيهم وأحســن تربيتهم.. واســتعنت فى ذلك بقناع الحكمة والفضيلة الذى ســاعدنى كثيرا فى الوصول بهم إلى أفضل سبل التربية والسلوك القويــم.. والتحقت ابنتى الكبرى نيفــين بكلية الطب التى أصرت على الدراســة بها لعشقها هذه المهنة الإنســانية التى ربما أكون قد زرعت فيها هذا الحب بقناعى الإنسانى دون أن أدرى.

ويواصل ابنى هيثم مشواره التعليمى فى كليته العسكرية التى التحق بها مجبرا بعد أن حاد به مجموع درجاته فى الثانوية العامة عن الكلية

التى يرغبها وكان يصرح دائما بأمنيته فى الالتحاق بها حتى يستطيع الانخراط فى السلك الدبلوماسى.. ويعيش حياته متنقلا بين بلدان العالم المختلفة.. ويشبع ميوله فى السفر والترحال حول العالم.. وقد أدركنا جميعا انه قد اختار الطريق الخطأ بدخوله كليته العسكرية التى ربما أراد أن يتفاخر بزيها وهيئتها ولم ير فيها سوى هذه الميزة.. وعندما صدمه الواقع بمدى جدية العسكرية والتزامها.. أدرك أى خطأ وقع فيه.. ولكن بعد فوات الأوان.

وهشام ابنى الثالث خط أولى خطواته فى كلية الحقوق ليسير على نهج أبيه الذى ربما وجد فيه القدوة التى يقتدى بها وأراد أن يكمل مشواره على الدرب ويسير فى الطريق نفسه.

عشت حياة طبيعية يحسدنى عليها القاصى والدانى.. حياة يملؤها الاستقرار بعيدة عن الهزات القوية التى تقتلع الكثير من البيوت الراسخة الأركان.. وعرفت بين الأهل والأصدقاء بالإنسان الجاد ذى الشخصية المتزنة صاحب الروح المرحة.. وممن يرحب بوجودهم فى المحافل الاجتماعية وتجمعات الأصدقاء والزملاء.. ووثق الجميع بفكرى وشخصى وأصبحت رمانة الميزان فى كثير من الجلسات والاجتماعات التى أحضرها أو أشارك فيها.

وظل القناع يلازمنى طوال مشوارى ولم يفارقنى إلا سويعات قليلة كنت أتحين فيها الفرصة وأغافله بفعل شيطانى أجد فيه ذاتى.. وأشعر بلذة الهروب والانفلات من رقابته.. وسرعان ما أعود مُسلما له مفتاح القيد وسائرا فى ركابه.

اعتــدت حياتي تلك ورضيت بها إلا من بعض إرهاصات كنت أقوم بهــا من حين إلى آخر.. حتى التقيت كارمن بعد فراق دام أكثر من عقد ونصــف ذهب كل منا إلى طريقه.. وعلمت أنها تزوجت وانفصلت عن زوجهــا ولم تدم بينهما الحياة طويلا لحبه الشــديد لها وغيرته الزائدة عن حدها التي حالت دون اســتمرار الحياة بينهما في ظل الشــكوك التــي كان يحوطهــا بها ونظــرات الريبة التي تملأ عينيــه من أفعالها وتحركاتهــا.. والرقابة الشــديدة التي فرضها عليها حتى اســتحالت الحياة بينهما ولم تجد بدًا من طلب الطلاق.. وتحقق لها ما أرادت بعد صراع طويل في المحاكم انتهى لصالحها لتبدأ حياتها من جديد ومعها ابنتها التي خرجت بها من هذه الزيجة.. وتدور معها الأيام كما دارت معي حتى جمعتنا صدفة الأقدار.

مــا إن رأيتهــا حتى أدركت أن هذه لحظة فارقــة في حياتي.. وأن مساري سوف يتوقف عندها كثيرا.. وأدركت أنه قد آن الأوان أن أتحرر من هذا القناع الذي لازمني عقودا من الزمان.. و لاقت لحظة فراقه هوى في نفســي.. أخيراً تحقق مــرادي.. بعد محاولات كثــيرة أردت نزعه والتحرر من قيده.. وكان وجود كارمن دفعة قوية للتخلص من هذا القناع وإلقائه بعيدا.. فما إن رأيتها حتى أعادت لي ذكريات العشــق و الحب القديم الــذي ظننت أنه قد انتهى وطويت صفحته.. فقد ازدادت نضجا وأنوثة.. وأعطتها تجارب الحياة خبرة ووعيا زادا من جاذبيتها ورونقها.

تحدثنا معًا وتذكرنا أيامنا الأولى.. واســتطاعت في ثوانٍ معدودة أن توقظ في قلبي مشاعر مضى عليها زمن وتبعث فيه شوقه وحنينه.

تذكرنـا مراحـل صبانا.. وذكريـات الماضي الجميـل.. وصارحتها بحقيقة شـعورى نحوها.. وترددى سابقا من الاعتراف بحبها.. وأمنية قديمة أن أفوز بقلبها.. ودفء يجمع بيننا.. ونعيد زماناً مضي.

صـادف هواى هواهـا وبادلتني مشـاعر دافئة أشـعلت الحمى فى جسـدى.. اندفعت إليها بكل جوارحى وبشوق وعذاب السنين أرتمى فى أحضانها.. أرتشف رحيق الحياة من شفتيها وأعيش سكرات الحب ولذته.

سـرعان ما تطورت العلاقة بيننا وانتقلت سـريعا من مرحلة المشاعر والأشـواق إلى مرحلة أبعـد من ذلك بكثير.. فقد شـعرت معها أنى قد حرمت من الدنيا ومتاعها وبوجودها قد وجدت ضالتى.. فوجدت أنوثة طاغية تعانقنى و تحتضننى.. وجسدا يلهب خيالى.. أرتشف من رحيقه وأنهل من ملذاته.

عشـقت جسـدها.. جحيم قبلاتها.. حرارة أحضانها.. ملامسـة شـعرها.. تعبـدت جمالها.. مليكتى هـى وأنا معبودهـا.. تملكتنى وجعلتنى أسير هوائها وسائرا على دربها.. فقد وجدت فيها ما لم أجده فى امرأة غيرها.. أثارت الرجل فى داخلى.. وبثت الحياة فى جسدى.. فكنت أسيرها وعبدها.

أدركـت كارمن بفطرتها الأنثوية مـا يعتمل فى صدرى و ما أعانيه مـن حرمان طال عهده.. وجفاف أصاب قلبى.. فآلت على نفسـها أن تروى ظمئـى.. وتفننت فى إظهار مفاتنها وأنوثتها الطاغية.. وتصنعت فى دلالها وحسنها حتى ملكت جسدى وروحى وبتنا روحين فى جسد

واحـــد.. وتعالت صرخات الجســـد.. وحرارة متقـدة.. لا تكاد تنطفئ حتى تشتغل مرة أخرى.. يرويها نبع حنانها ورحيق قبلاتها.. وبتنا لا نفـترق إلا لنجتمع مرة أخرى.. أتنفس هواءها وأحيى بخمرها.. وأصبح الليل أنيسنا.. والعشق محرابنا.

أدركت جوهر ذاتـــى.. لا قناع يزجرنى أو جلباب يرهبني.. تركت نفسى على سجيتها أرتع فى بستان العشق وأنهل من ملذاته.. واستطاعت كارمـن أن تملك كل حياتي.. ســلبتنى أهلى ووجدانى.. ووجدت فيها ضالتي ومنشـــدى.. وتحررت معها من قيدٍ ألهب معصمى وقيد روحى.. أطلقتنـــى وطرت معها فوق ســحيبات يملؤها الحب والعشـــق.. وتركنا وراءنا أرضاً مجدبة كدت أموت فيها عطشًا.

اعتدت الذهاب إلى شـــاليه كارمن فى مدينتها الســاحلية نرتشــف رحيق الحب ونروى ظمأ السنين.. ونذوب معا فى لحظات تتأجج فيها حرارة الجســـد.. علـــى نغمات هدير بحر تتلاحـــق موجاته.. وعاصفة تضـــرب مياهه فتزيد اندفاعه وجنونـــه.. نقتطع من العمر أياما نقضيها معا.. تنتهى ســـريعا وإن طالت بنا.. فالوقت معها لا تحســـبه الثوانى والســـاعات فهو خارج الزمان لا يحده قيد أو ميعاد.. وتقف عنده كل الحسابات.

حب وعشـــق.. كأس وخمر.. موج وقمر.. معشـــوقتى كارمن.. تلك هـــى لذة الحياة.. عشـــتها وجرفنى تيارها.. وتركت نفســـى طواعية.. تتقاذفنى أمواجها.. مبتعدا عن شـــاطئ الســـكينة إلى خضم بحر الحب تلفنى دواماته وأذوب معها.. وتقذفنى فى أعماقه حيث كنوزه ولآلئه.

تذكرت عصفوى حبيس القفص يوم أردت إطلاق سـراحه و فتحت لـه الأبواب علـى مصراعيها وتركته يختـار دروب الحرية والانطلاق بعيدا عن محبسـه.. حيث حياته الطبيعيـة و فضاؤه الرحب وسماؤه الفسيحة.. ووقفت أنتظره وأرقبه عن قرب.. وهو يرمقنى بنظرة تعجب واستفسار.. غير متيقن صدقى فى منحه حريته وحثه عليها.

مـرت فترة من الزمن لا أدرى طالـت أم قصرت غير أنى أدركت ما يعتمل فى نفس عصفورى وهو يستهل أولى خطواته على طريق الحرية.. فقد بدا مترددا.. خائفا.. تائه النظرات.. ينظر يمينا ويسارا لا يدرى أى طريق يسـلك وأى اتجاه يختار.. وأجنحته التى كان ينشرها فى قفصه ويفاخـر بقوتهـا باتت ثقيلة لا تقوى على حملـه خوفا من المجهول القادم الذى ينتظره.

قفـز عصفورى قفزة سـريعة ووقف على باب القفـص وهو ينظر إلىّ نظرات خوف وريبة ولسان حاله يتساءل هل أنطلق حقا وأمتلك حريتى؟ وكنت أنظر إليه مشـجعا ومحفزا ومودعا فترة قضينا معًا نشكو حالنا.. ونظرات بيننا معبرة يفهم كل منا مغزاها.. فكلانا أسـير وكلانا نطلب الحرية.

بعـد برهة من الزمان ينطلق عصفـورى مودعا المكان وفاردا أجنحته تحمله الريح إلى حيث يريد.. تاركا وراءه قيدا كان حبيسه أعواما طويلة.

أرقـب تدافع الموج.. فى عرض البحر.. ونسـمة هواء عليل تلاطف وجهى.. وأنا جالس على الشاطئ أنتظر كارمن أن تأتى من خلفى وتضع يديها على عينى كما تعودت أن تفعل منذ أن التقينا لتسألنى من أكون..

وأجيبهـــا في حب و حنان.. ثم نواصل يومنـــا في ضحكاتنا وأحاديثنا و أمـــواج هادرة وأشـــواق في ذروتها تذيب أرواحنا.. ونلتقي جســـدين جمعهمـــا الهوى وألقى بهمـــا خارج الزمان والمكان حيث عالمنا الخاص الذى نحياه بعيدا عن الدنيا وأرض الواقع.

وبينمـــا أنا غائب عن العالم من حولى فـــى انتظار كارمن أن تأتي.. شـــعرت بيد تربت علـــى كتفى.. وصوت صديق يوقظنـــى من غفوتي.. وملامة يحملها حديثه أنني تجاهلته وهو جالس على الشاطئ غير بعيد عني منذ ما يقارب الساعة ولم أبادله التحية والسلام .

فتحت عيني..ودقات قلبى تتســـارع تـــكاد تقذف به خارج صدرى ولحظـــات تمر وأنا غير مدرك وجودى وحقيقة أمرى.. فقد شـــطحت بخيالى بعيدا.. وعشت وهما تمنيته..وانسلخت عن ذاتى لأشبع رغبات مكبوتـــة.. وأطلق العنان لأحلام شـــيطانية.. وأفيق مـــن غفوتى وأدرك واقعي.

هـــاج البحر و علت أمواجـــه وأغرقت مياهه رمال الشـــاطئ حتى طالتنـــى وبللت ملابســـى.. عدلـــت من مكانى لأجمع رفات نفســـى.. وبطرفة عين لمحت جلبابى وقناعى ملقيين بجوارى.. يرمقانى بنظرات لوم وعتاب.. فأطرقت برأســـى خجلا وتصببت عرقا وشعرت أننى بلا ثياب وأني قد تعريت وضُبطت متلبســـا.. فســـارعت من فورى أرتديهما وأســـير على عَجل مبتعدا عن شـــاطئ الأحلام الذى أخذنى إلى حيث أردت أن أهـــرب من ذاتى حتى أجد حياتي.. فأبى قناعى أن يتركنى وأبيت أن أفارقه وكنت له أسيرا.. فلا أجد منه مهربا إلا فى خيالى.

ســارعت أجر أذيال الخيبــة والحزن.. وبقلب متصــدع ذهبت إلى منزلى.. وولجت إلى غرفتى أشــعل ســيجارتى علهــا تؤنس وحدتى.. وأستطيع أن أتمالك نفسى.. أللم روحاً تنتظر الاحتضار.. وأدرك بركاناً يتنفــس انفجاراً.. وأخذت أنفث دخانــاً.. يحمل زفرات ملتهبة لنيران متأججة فى صدرى.

فتحــت أبواب الشــرفة علنى أجد بعض الهــواء الرطب ربما يطفئ لهيب حمى تســتعر فى جســـدى.. وفجأة وجدت عصفورى أمامى وقد تدلت أجنحته.. وارتجفت أوصاله وقد أنهكه التعب وتغلغل البرد فى جسده الصغير.. وبدت فى عينيه نظرة انكسار..

ومــا إن رأى بــاب الشــرفة يفتح حتى قفز مســرعا إلى قفصه وولج بداخلــه.. وأخذ ينظر لى نظرات توســل.. وكأنما يطلب أن أغلق عليه بابــه ولا أفتحه مرة ثانية.. ويهمس برســالة صامتــة أن قد وجد ذاته وحياته فى قيده ومحبسه.. وسرعان ما خلد إلى نوم عميق وكأنما ارتضى حياة الأسر واستكان لها.

نظرت له طويلا.. ولســان حالى يخاطبه.. نم يا صديقى واســترح.. فكلانا حاولنا كســر قيودنا.. و الهروب من ذاتنا وحياتنا والانطلاق إلى حيث الفضاء والحرية.. ولكننا قد اعتدنا هذا القيد وارتضيناه فلن يضيرنا شيء أن نســتكمل معه حياتنا.. فقيودنا تكلبش أرواحنا ونفوسنا.. ولن نستطيع الهروب من ذاتنا.

«تمت»

رصاصة الرحمة

رصاصة الرحمة

اقتربت اللحظة التى انتظرتها طويلا.. وعشـــت سنوات عمرى أحلم بها وأســعى إليها.. فبعد أيام قليلة ســوف أقف أمام لجنة تضم عددا من مشــاهير نجوم الفن فى أكبر مســابقة للوجوه الجديدة على مستوى الوطن العربى.. وســوف أصدح بصوتى حتى يصل إلى القاصى والدانى فى ربوع مصر والعالم العربى.. وأملأ الدنيا غناء وطرباً.. وأثبت للجميع أن محاولاتى الغناء فى الفترة الماضية نابعة عن موهبة حقيقية وإحساس مرهف بالكلمة.. وأننى أســتحق أن أكون مع مطربى الصف الأول الذين يحلقون فى سماء الفن.

ها هى الفرصة تواتينى وسوف تستمع اللجنة إلى فنى وتقيم أدائى وتمنحنى إشــارة خضراء للانطلاق إلى عالم الشــهرة والمجد حاملا معى خاتمًا رسميًّا من أكبر مسابقة فنية تمنح صك الأمان وتأشيرة الانطلاق.

من فرط ســعادتى بهذا الحدث وترشــحى للغناء فى هذا المســابقة جعلت من نفسى بوقا لجميع من أعرفهم لإبلاغهم بموعد الحلقة الأولى ومشاركتى بالغناء على مسرح المسابقة أمام الحشد الكبير من المشاهدين.. وقد ســعدت كثيرا بنظرة الدهشة فى عين الكثيرين.. والغبطة والسعادة التى بدت على أهلى وأصدقائى المقربين.. وبين الحين والأخر كنت أرى بعض نظرات الريبة فى عيون البعض وتشككهم.. غير أنى لم أبال بتلك النظرات ولم أضعها فى حُسبانى.. فالهدف أمامى أكبر وأعمق من بعض النظـرات وما تحمله من حقد أو إعجــاب.. فالأمر يتعلق بحلم حياتى

ومستقبلى.. وأمل سعيت وراءه عمرا بأكمله أعمل على تحقيقه والوصول إليــه.. وحاربت كثيرا حتى أثبت لمن حــولى أننى صاحب صوت مميز وأداء على قدر عالٍ من التميز .

تذكــرت أياما بعيــدة مضت منــذ أن كنت أغلق على نفســى باب حمامى وأحاول تقليد بعض المطربين المشهورين.. وأعوام طويلة قضيتها وأنا جمهور نفســى.. أستمع إلى صوتى بمفردى محاولا اكتشاف مواطن الضعــف والقوة والعمل على تجويده وتطويره.. و كلما شــعرت بتوهج الموهبــة بداخلــى أغلق باب حمامى وأظل أغنــى وأغنى حتى ينتابنى شعور الرضا والاطمئنان.

ولا أنسى يوم أن استمعت شقيقتى سحر إلى غنائى من خلف الأبواب عندمــا أخذتنى الجلالة وارتفع صوتى مدندنــا أعذب الألحان وأنا فى حجرتى متفردا مع ذاتى.. فقد تســلل صوتى إلى أذن شقيقتى ويبدو أنه قد لاقى استحســانها..وأطربتها الأغانى التى كنت أشــدو بها.. حتى إنهــا قد تحمســت لى منذ هذه اللحظــة.. و تبنتنى فنيــا وعملت على تشــجيعى ودفعى للغناء أمام الأهل و الأصدقاء وإخراجى من محراب الوحدة الذى كنت أعيشه.

غير أنى خشــيت كثيرا من الإقــدام على هذه الخطوة.. فقد تملكنى الخجل وخشيت أن يكون صوتى دون المستوى وألا يلاقى الاستحسان.. لذلك كنت أفضل أن أكون مطرب نفسى.. أغنى وأستمع لغنائى بمفردى ويكون حمامى مسرحى وإذاعتى.

لم يســتمر الأمر طويلا فقد فُضِحَ سرى وعرف كل من فى البيت أنى أمتلك صوتا لا بأس به.. وأنى أغنى وأطرب مع ذاتى.. فعمد الجميع إلى

محاولة الاســتماع إلى غنائي خاصة في لحظات الجلالة التى تأخذنى وأنــا أدندن بمفــردى فيعلو صوتى وأجهر بكلمــات بعض الأغانى التى أحب أن أتغنى بها.

يبدو أن صوتى قد لاقى استحسان وإعجاب والدتى وشقيقاتى خاصة أختى ســحر التى حاولت مرارا وتكرارا أن تخرجنى من عزلتى وتوسع قاعدة جمهوري..وأخذت تشــجعنى وتثنى على صوتى حتى استطعت أن أقــف أمام عائلتى أدندن بعض الألحان التى كنت قد حفظتها ظهرا عن قلب فى مســرحى الخاص.. ويبدو أن صوتى قد نال إعجابهم ورأوا فيــه بادرة طيبة و بعض العذوبة.. فأخذوا يشــجعوننى ويشــدون من أزرى محاولـين الترويج لى على مســتوى العائلة والأهل.. فى صورة من صور فخر الأسرة بأحد أبنائها فى ميزة وموهبة اكتشفوها تعطيه بعض الأفضلية عن أقرانه..فكانت والدتى تباهى بصوتى أمام خالاتى وعماتى وتمدح فىّ قدرتى على الغناء بصورة تطرب الآذان وتبهج الروح .

استمرت الحال على هذا المنوال فترة ليست بالقصيرة.. أدعى للغناء أمام الأهــل والأصدقاء..ويطرب الجميع ويبدون إعجابهم بالاســتماع لهذا الصوت الفطرى.

وكم كانت ســعادتى وأنا أرى جمهورى وقد بدأ يتسع شيئا فشيئا.. وأرى نظرة الرضا فى أعينهم.. وزاد من سعادتى كلمات الإعجاب التى كنت ألاقيها مع كل أغنية أشدو بها.

إلى هنا والمسألة تسير سيرا طبيعيا داخل العائلة والأسرة ولم يتجاوز صوتى هذه الحدود ولم يتسع مسرحى أكثر من بيوت الأهل والأقارب.

حرصت دائما على أن أستعين برأى شقيقتى سحر التى كانت أول من أكتشف موهبتى وشجعتنى على الجهر بها.. بل إنها حرصت على تشجيعى لتنمية هذه الموهبة بأن أحضرت لى بعض الكتب الموسيقية والفنية التى أستطيع من خلالها أن أتعلم الخطوط العريضة لفن الطرب والأغانى حتى يأتى اليوم الذى أعد نفسى له من الآن والتحق بإحدى الكليات الفنية التى تتيح لى دراسة الغناء وتجويده بصورة علمية وأكاديمية.

استطاعت سحر أن تأخذ بيدى وتضعنى على أول السلم الذى أستطيع من خلاله تحقيق أمنيتى.. فشقيقتى رغم كونها خريجة كلية الهندسة ولم تحصل على دراسة فنية أو موسيقية فإنها تمتلك أذنًا موسيقية وحبًّا لدنيا الطرب والنغم وتستمع إلى كثير من المطربين والمطربات وتدندن بأغانيهم بصوت عذب طروب.. غير أنها لم تفكر يوما فى الاتجاه صوب هذا الدرب رغم ولهها وعشقها للفن وأهله.

ويبدو أنها وجدت فى صوتى تعويضا لها عن اختيارها طريقا علميا ودراسة هندسية ورياضية بحتة.. فكانت تنطلق مع خيالها وأحلامها من خلال صوتى والأغانى التى أتغنى بها.. وحرصت على تشجيعى منذ اليوم الأول لاكتشافها موهبتى وعملت على دعمى والترويج لى فى كل مكان.. وكان فارق السن بينى وبينها يعطيها فى قلبى قدرا من الاحترام والتقدير تتساوى فيه مع منزلة والدتي..فهى تكبرنى بأكثر من سبعة أعوام وقد تخرجت فى كليتها وافتتحت مكتبًا هندسيًّا تباشر فيه عملها وتحاول أن تجتهد لتصبح مهندسة متميزة فى مجالها .

وتقضى الساعات الطوال فى عملها الميدانى وتأتى البيت مجهدة نتيجة هذا الجهد الكبير الذى تبذله..ناهيك عن استكمال دراستها ومحاولاتها الدءوبة التعمق فى المجال الهندسى حتى تستطيع تحقيق أحلامها والوصول إلى غايتها وهدفها.

ويبدو أن وفاة والدى قد تركت أثراً فى سحر كثيرا وجعلتها إنسانة قوية قادرة على الاعتماد على نفسها وتحقيق ذاتها.. وقد آلت على نفسها أن تقوم بالدور الذى كان يقوم به والدنا.. وكثيرا ما كنت أرى فى عينيها نفس النظرة التى كنت أراها فى عينيه خاصة وهى تلقننى النصائح وتحاول أن تزرع الثقة بنفسى.. وقد استطاعت أن تسد الفراغ الذى تركه أبى بعدما توفاه الله خاصة بالنسبة لى فقد وجدت فيها البديل الذى يعيننى ويشجعنى ويقف معى فى المصاعب التى تقابلنى وتعمل جاهدة على أن تيسر لى الأمور وتضعنى على الطريق الصحيح.

ويبدو أنها قد استشعرت منى هذا الإحساس تجاهها.. وربما صادف هوى عندها فعملت على تقويته وجعله واقعاً وحقيقة ملموسة شهد بها الجميع فى العائلة وخارجها.

لذلك فقد كانت تربطنى بسحر علاقة خاصة تتجاوز الإخوة إلى علاقة أشمل من ذلك وأكبر بكثير.. فقد كانت تمثل لى الأهل والسكن والقوة التى تساندنى وألجأ إليها عند كل مصاب يصيبنى أو مشكلة تلم بى.

استطاعت سحر وهى طالبة فى الجامعة أن تهيئ لى بعض الفرص للغناء أمام صديقاتها فى بعض المناسبات الخاصة التى كانت تجمعهن فى بعض حفلات أعياد الميلاد أو الاحتفالات البسيطة التى يقيمنها

فى منازلهـــن ويحضرها تجمعات من زملاءهـــا وزميلاتها.. فقد كانت هـــذه اللقاءات أول عهدى بالعالم الخارجى وبداية لإحساســـى الحقيقى بالمسئولية ودفعى للعمل على تدريب صوتى والارتقاء بفنى حتى أستطيع مواجهتهـــم والغناء أمامهم.. خاصة بعد أن سمعت بعض كلمات الإطراء والتشجيع من الكثير من زميلاتها فى هذه الحفلات الصغيرة.

فقد كانت ســـحر أســـاس الانطـــلاق وعاملاً كبيراً مـــن العوامل التى ساعدتنى على الدخول إلى عالم الفن ومحاولة الوصول إلى مرحلة متقدمة فى تطوير صوتى واحتراف الغناء.

كنت أشـــعر بســـعادة تغمرنى عندما أرى البهجة فـــى عين والدتى وشـــقيقتى إيمان وأمل وهم يستمعن إلى ســـحر وهى تصف لهن إعجاب صديقاتها بصوتى وتعليقاتهن المشجعة وتنبؤات البعض منهن لى بمستقبل باهـــر فى عالم الغناء والطرب.. وكنت أشـــفق على والدتى وهى تحاول دائما أن تتحدث عنى بلهجة الفخر والإعزاز أمام صديقاتها ومعارفها.. وكان صوتهـــا يصلنى وهى تحدثهن وتفيض فـــى حديثها عن موهبتى وعذوبة صوتى.. وعمدت دائما الاستماع إلى الأحاديث التى أكون بطلها حتـــى أرى ردود الأفعـــال ومحاولة منى لتقييـــم فنى من خلال معارفنا والمقربـــين للعائلة.. فأنا مازلت علـــى أعتاب أول الحياة الفنية ويملأنى شـــعور بعدم الثقة.. وأتوق إلى كلمة تشـــجيع تزيـــد من ثقتى وتقوى من عزيمتى.

استطاعت سحر أن تفاجئنى وأنا ما زلت دون الخامسة عشرة بترتيب فقرة غنائية أكون بطلها على مسرح الجامعة فى حفل تقيمه أسرة الكلية

يحضره حشـد كبير من الطلاب والأساتذة وعميد الكلية.. وقد كان هذا الحفـل هو ميلادى الفنى.. حيث إنه اللقاء الأول مع جمهور حقيقى.. وغناء شبه احترافي يقام على مسرح أكاديمي ويشهده جمع كبير.

لا أستطيع أن أعبر عن شعورى فى هذه اللحظة التى أخبرتنى فيها سحر أننى أحد نجوم الغناء في هذا اليوم وأننى سوف أشارك مجموعة من الطلبة والطالبات الموهوبين إحياء هذا الحفل.

تسارعت دقات قلبي وكدت أفقد وعيى من هول المفاجأة.. فأنا لم أهيئ نفسى لموقف كهذا ولم أتدرب على مواجهة جمهور بهذا الحشد.. ولم أغنِّ أمام ميكروفون طوال حياتى.

حاولت الهرب من هذا الاختبار وشعرت بضآلتى أمامه.. وأن الغناء فـى هذا الحفل يعـادل عندى محاولة الانتحار.. لذلـك حاولت الفرار وادعاء كل الحجج والبراهين حتى أتمكن من الهروب من هذا الموقف العصيـب الذى وضعت به دون أن أسـعى إليه.. غير أن سـحر قرأت أفكارى وأدركت أعذارى فأحاطتنى من كل جانب وحاصرتنى محاصرة لافـكاك منها حتـى أدركت أنه لا محالة عن الغنـاء فى هذا الحفل.. فاجتهـدت لتدارك الأمر و السـيطرة على انفعالاتـى وترتيب أوراقى لخوض هذه التجربة الصعبة التى وضعت فيها دون اختيار.

حاولت أن أسـتعيد ثقتى بنفسـى وأرتب أفـكارى لجعل هذا اليوم ميلادا جديداً.. وأصبح موضع فخر لشقيقتى بين زملائها وأساتذتها فى الكلية.. ووجدت أن هذه فرصتى كى أرد لها بعض الجميل الذى طوقت به عنقى على مدار حياتى التى عشتها.

بدأت أنظر للأمور بصيغة الأمر الواقع وأن ما يحدث ما هو إلا تدابير قدرية ويجب أن أستغل هذه الفرصة الحقيقية التى وضعتها الأقدار فى طريقي وأحاول أن أثبت لنفسى وللآخرين أننى فنان بحق وأن موهبتى ليست ادعاء أو لهو مراهقين.

جاء اليوم الموعود وأمسكت بيد سحر وذهبنا معا إلى الجامعة ومفاصلى ترتعد من الخوف ويبلل جبينى العرق ولا أستطيع تمالك أعصابى.. فمنذ أن تركنا البيت وأنا أكاد لا أرى شيئًا أمامى ولا أسمع سوى دقات قلبى تكاد تصم أذنى.. وكم من مرة تلعثمت فى حديثى مع سحر وهى تحاول أن تشجعنى وترفع معنوياتى.. وتعثرت أكثر من مرة وكدت أسقط على الأرض وأنا لا أرى تحت قدمى وكأنى مساق إلى موت بطيء وكل خطوة أخطوها تقربنى من المقصلة التى سوف ألقى بها حتفى وتسلبنى حياتى.

ظلت هذه حالى حتى وصلنا إلى مكان الاحتفال.. و الجموع المحتشدة داخل المسرح الكبير الذى يعج بآلاف الطلبة والطالبات.. وتجمعات هنا وهناك.. وتبادل تحيات وسلامات.. وكادت سحر تضيع منى وسط هذا الجمع الكبير من صديقاتها وأحاديثهن التى لا تنتهى.. غير أنها أدركت وجودى وما أعانيه فعمدت إلى تشجيعى ببعض الكلمات.. وأخذتنى من يدى وسلمتنى لمسئول الحفلة والفرق الفنية وتبادلت معه التحية وبعض كلمات الوصاية.. وتركتنى وذهبت لتصطف مع زميلاتها فى مقاعد المسرح.

أدركت الآن أنى أصبحت وحيدا بين هذا الحشد الغفير وأن الواقعة قد وقعت وما كنت أخشاه قد حدث وأصبحت وجها لوجه مع نفسى ومع هذا الحدث الكبير.

وعلـــى عكس ما توقعت فقد شـــعرت بالثقة والقـــوة تتملكنى والقدرة على مواجهة هذا العدد الكبير والغناء وسطهم غير مبالٍ بشىء مما كنت أخشاه قبل..وكأن ملاقاة الموت أخف من خشية لقائه.. فقد أدركت أن الوقوع فى الحدث يخلق فى الإنسان قوة تكافئ هذا الحدث بل وتَفوقه لتجعل صاحبها على قدر مساوٍ ورد فعل مكافئ لهذا الفعل.

سرعان ما بدا الحفل ببعض الأبيات الشعرية التي ألقاها أحد الطلاب ولاقت استحســـان الحاضرين.. وتلتها بعض الفقِـرات الفنية والغنائية مـــن بعض الطلبة والطالبات قوبل الكثير منها بالإعجاب والاستحســـان والتصفيـــق.. حتـــى جاء دورى ووقفت على المســـرح وأنـــا لا أكاد أرى أمامي.. غير أنى تماســـكت بعض الشـــيء وحاولـــت أن أبحث بعينى عن سحر بين الحاضرين وأنظر فى عينيها كى أستمد بعض القوة التى تساعدنى على اجتياز هذا الموقف العصيب.

ومع انتهاء المقدمة الموسيقية الصغيرة كنت قد تمالكت نفسى وبدأت فى الغناء.. وبعد برهة صغيرة من مطلع الأغنية وكلماتها الأولى فوجئت بتصفيق الحاضرين وتشـــجيعهم.. مما زادنى ثقة وأزال عن قلبى الرهبة.. فاندمجت فى الغناء حتى أحسست أنى أحلق بأجنحتى فى سماء الطرب.

ومع قرب انتهاء فقرتى تمنيت أن يطول بى المقام ولا أترك المســـرح إطلاقا وأظل أشـــدو على خشـــبته إلى نهاية العمر.. وما إن انتهيت من الغناء حتى دوى المســـرح بتصفيق حاد اســـتمر فترة ليســـت بالقصيرة.. ولمحت ســـحر بين الحضـــور تتلقى التهانى والإعجـــاب ويملؤها الفخر والسعادة بنجاحى وتأكيد موهبتى.

انتهـــى الحفل وتلقيت فيه الكثير من كلمات المديح والإعجاب التى ملأتنى غبطة وســعادة و جعلتنى أشــعر أنى فى حُلم قد ابتعد بى عن أرض الواقع.. ..وزادت ســعادتى وأنا أرى الابتســامة تملأ وجه سحر وكأنهــا تتلقى التهانى بحصولها على جائزة مجهودها وتعبها ســنين طوالاً وهي تحاول تشجيعي وبث الثقة بنفسى.. وها هى تجنى وتحصد أولى نتاج عملها.

أدركت ومعى شــقيقتى ســحر أن مرحلة الهواية قد انتهت و يجب أن أتجه الاتجاه الصحيح نحو عالم الشــهرة والاحتراف حتى أصل إلى مــا أبغيــه وأنول ما أتمناه.. وقد حاولت ســحر بعد ذلك ترتيب بعض الحفــلات المماثلة واســتطعت أن أثبت قدراتى وأؤكــد موهبتى وأنول إعجــاب جمهورهــا....و حاولت من جهتى اســتغلال بعض الفرص القليلة فى بعض المناســبات للغناء بها ومحاولة الانتشــار عن طريقها.. غــير أنه رغــم كل هذه المحاولات فإنها لا تعدو ســوى محاولات هواة لا تصنــع نجمًا ولا تقدم فنانًا.. فجميعهــا حفلات مقصورة على الأهل والأصدقاء وعدد قليل من المعارف والأحباء.

لذلــك حاولت كثيرا ومعى ســحر طرق أبــواب النجومية ومحاولة الوصول إلى من بيدهم القرار ومفاتيح الشــهرة.. غير أن محاولاتنا باءت جميعها بالفشل وصدت جميع الأبواب فى وجوهنا.. فهذا العالم يختلف عن عالمنا ويبتعد عنا كثيرا ولا يوجد من يوصلنا إليه ويفتح أبوابه أمامنا على مصراعيها أو حتى فتحة مواربة نستطيع الدخول والإيلاج منها إلى حيث هذا العالم الفسيح والشهرة الواسعة.

كاد اليأس يصيبني من احتراف الغناء والوصول إلى عالمه.. لذلك قررت أن أسلك الطريق من بدايته.. فالتحقت بمعهد فنى يتيح لى الدراسة الأكاديمية حتى أستطيع أن أثقل موهبتى و أتعلم أصول الغناء الأصيل الذى يضعنى على بداية الطريق الصحيح .

وتناسيت بصورة مؤقتة عالم النجومية لما لاقيته فى سبيل الوصول إليها من إحباط كاد يصل بى إلى حالة من اليأس مع شقيقتى سحر التى وقفت بجانبى فى كل خطواتى وحاولت جاهدة أن توظف خبرتها ومعارفها فى الوصول إلى مفتاح هذا الطريق دون جدوى.

وذات يوم حدثت المعجزة دون أن نرتب لها أو نسعى إليها.. فقد اتصل أحد أساتذة سحر وأبلغها بوجود مسابقة للأصوات الشابة على مستوى الوطن العربى ويتقدم لها العديد من المطربين والفنانين على اختلاف نوعياتهم وتصنيفاتهم.. ويتم اختيار الفائز منهم ليمثل البرنامج.. ويتبنى القائمون على هذه المسابقة موهبته حتى يصلوا به لعالم النجومية.. وأخبرها أستاذها أنه على معرفة بأحد المسئولين عن هذا البرنامج وقد ضرب لنا موعدا لمقابلته والتنسيق معه للاشتراك فى هذه المسابقة على أمل الفوز والانطلاق إلى عالم الشهرة.

فاجأتنى سحر بمكالمة أستاذها والموعد الذى حدده لنا مع صديقه مسئول المسابقة.. وتذكرت معها إعجاب هذا الأستاذ بما قدمته من غناء على مسرح الجامعة عندما كان مسئولاً عن هذه الحفلات و فقراتها المختلفة.. غير أنى تلقيت حديثها وأنا فى حيرة من أمرى ويكاد الشك يملؤنى.. وخشيت أن يكون إحدى دعاباتها معى.. غير أنها أكدت لى

مقولتها وطلبت منى الاستعداد للذهاب للمقابلة وتقديم طلب الاشتراك وملء الاستمارة الخاصة بالبرنامج.

اجتاحتنى مشاعر متباينة وأنا أستمع إلى سحر.. فقد أحيت بداخلى أملًا كاد يلفظ أنفاسه.. وأحلاما كدت أستيقظ منها.. فقد تركت منذ أمد بعيد طريق البحث عن النجومية وقنعت بدراستى وحفلاتى القليلة التى أحييها للأهل والأصدقاء.

حاولت أن أتمالك نفسى وأستوعب الموقف والأمر الواقع .. فها هى الفرصة التى انتظرتها كثيرا تأتينى دون سعى منى أو مجهود.. وكأن القدر أراد أن يتصالح معى.. ويقدم لى ثمرة جهدى عن الأعوام الماضية.. وما علىَّ سوى العمل بجد والتدريب المستمر والاجتهاد ليل نهار حتى لا تفلت هذه الفرصة من يدى وأهوى إلى بئر لا قرار لها.

انتابنى شعور قوى أن الله أراد بى خيرا وما دامت فرصتى قد جاءتنى دون أن أسعى لها.. فهى إذا وعدة تواعدتها وسوف أنالها وأفوز بها.. وأحقق حلما ظللت أحلم به.. وأملا ظل يراودنى سنين طوالاً لم يغب عن مخيلتى لحظة واحدة وكان ملازما لى ليل نهار.. غير أنى قد عدمت الوسيلة لتحقيقه وخانتنى الحيل فى الوصول إليه.. وها هو الحلم يتحول إلى واقع والأمل أراه بين يدى.. وما علىَّ إلا أن أمد له يدى لأحصل عليه.. ومن ثم تلمع نجوميتى وتجتاز شهرتى الوطن العربى من محيطه إلى خليجه.. وربما تبتعد أكثر من كذلك وأصبح مطربا عالميا تتحدث عنه شعوب العالم وتباهى مصر به الأمم.. لمَ لا وقد جاءتنى الفرصة التى أحلم بها وأنتظرها.. وباتت على قيد خطوات قليلة منى.

حاولت أن أفيق من أحلامى التى ارتفع سقفها واتسع فضاؤها حتى طالت عنان السماء.

ذهبت مع سحر إلى حيث المكان الإدارى الخاص بهذه المسابقة.. وقابلنا المسئول الأول عن البرنامج.. وبتوصية أستاذ شقيقتى سحر اجتزت جميع الاختبارات وتم اختيارى ضمن المتسابقين فى هذا الكرنفال الفنى الكبير الذى ينتظره الوطن العربى بأكمله.. وتركنا المكان والفرحة تغمرنا غير مصدقين اجتياز خطوات الوصول إلى هذه المسابقة بهذا اليسر وتلك السهولة.

كدت أفقد صوابى من الفرحة والسعادة التى تملكتنى.. ..وأحسست أنى طائر يحلق بجناحيه وينظر للأرض من فوق السحاب.. فيجدها صغيرة وقد ضمها إليه بنظرة عينيه.. وأصبح قادرا عليها وعلى امتلاكها وضمها لحوزته.

تمالكت سحر أعصابها بسرعة.. واتصلت بأستاذها تشكره وتخبره بما حدث.. وتطلب منه دعمنا فى المراحل التالية حتى الوصول إلى بلد المسابقة الذى سوف يجرى فيه المفاضلة بين المتسابقين واختيار الفائز فيه.. ولم تنس سحر أن توجه لى بعض النصائح وتشحذ همتى لبذل الجهد حتى أستطيع استغلال هذه الفرصة التى واتتنى دون حسبان .

عكفت سحر على وضع الخطط ومحاولة تنظيم أمورى فى ضوء المواعيد التى بُلغنا بها من مسئولى هذه المسابقة.. وتحدثت معى فى عُجالة واستعرضت رءوس المواضيع التى يجب أن أضعها على رأس أولوياتى.. ووعدتنى بمحاولة التفرغ لى فى المرحلة القادمة حتى نستطيع معا وضع الخطط والترتيبات اللازمة قبل السفر الذى قارب موعده.

تملكنى الزهو بنفسى وأحببت أن يشاركنى الأهل والأحباب سعادتى وكان أول ما تبادر إلى ذهنى وأنا أستعد للسفر إلى البلد العربى الذى يستضيف هذه المسابقة أن أخبر جميع معارفى وأصدقائى باشتراكى فى تلك المسابقة وكأنى أطلب منهم أن ينتظروا مولد نجم.. سطع ضوؤه وقارب أن ينير سماء الفن والأغنية العربية.

سافرت ومعى شقيقتى سحر بعد أن تفرغت لى تماما خلال الفترة الماضية وتركت أعمالها و مشاريعها.. وأصبحت قضيتها الوحيدة خلال هذه المرحلة.. و أخذت على عاتقها الاهتمام بى وتنظيم برنامجى ومحاولة بث الثقة بنفسى.. وكانت يد العون لى فى كل خطوة أخطوها ومظلة الحماية التى أستظل بحمايتها.. وأستقى منها القوة والأمان.

انخرطت فى النظام اليومى لبرنامج المسابقة وعشت مع المتسابقين أياما عصيبة نتدرب معًا مع الفرق الفنية من موسيقيين وملحنين وأساتذة على قدر عالٍ من الاحتراف.. لمحاولة مساندتنا وتشجيعنا واختيار ما يتناسب مع إمكانيتنا الصوتية والفنية من الحان وأغانٍ والتدريب عليها حتى نؤديها أمام اللجنة ونستطيع أن نجتاز بها اختباراتهم ونصل إلى غايتنا المنشودة.

مرت الأيام سريعة ونحن فى تدريب مستمر ونظام عمل قاسٍ يتخلله بعض الأوقات التى تشهد انفراجة وقليلًا من الضحكات والمواقف المضحكة من بعض الزملاء الذين يتمتعون بروح الفكاهة والدعابة وقد استطاعوا أن يخففوا من حدة التوتر الذى يلازمنا.. وعملوا على إذابة كثير من الفوارق بين المتسابقين خاصة إننا من بلاد وثقافات مختلفة.

دارت عجلة الأيام سـريعة وحانت اللحظة المنتظرة.. ولا أدرى هل حُسن الطالع أم سوء حظى قد أوقع فقرتى فى اليوم الأول من المسابقة وكنت على رأس القائمة وفى طليعة المتسـابقين الذين سوف يؤدون أمام لجنة التحكيم.

علمت مسبقا أن لجنة التحكيم تتكون من خمسة فنانين أحدهم فنان كوميدى مصرى والأربعة الآخرون من دول عربية شـقيقة.. وهم: ممثل تراجيـدى.. ومطربة عربية كنت أسـتمع إلى أغانيها وأنا طفل صغير وما زالت فى قمة عطائها ونضجها الفنى.. وفنانة عربية شابة من بلد شقيق عرفت بأغانيها الخفيفة وروحها الجميلة.. ويعشق فنها ويحبها كثير من المصريين وشـباب الدول العربية.. وكان العضو الخامس أحد الملحنين الذين لا أعرف عنهم الكثير..وهو نفسه غير معلوم لى ولم أسمع له أى لحن سابقا ربما جهل منى أو أن ألحانه غير منتشرة أو معلومة.

كنـت أحمل عبئا ثقيـلا وأنا أعلم أن الوطـن العربى بأكمله ينتظر مشـاهدة هذه المسـابقة.. ويقوم مواطنو كل دولة بتشجيع المتسابقين من أبناء بلدهم.. وتتعالى دقات قلبى كلما اسـتحضرت الحشـد الكبير من الأهل والأصدقاء الذين ينتظرون فقرتى وغنائى فى هذا المحفل الكبير.. .والكثير منهم يتمنى لى النجاح ويراهن علية ويحبس أنفاسه حتى أكون فى المصاف الأول من المتسـابقين.. والبعض القليل يتمنى الفشـل كنوع مـن أنواع الحقد والبغض الـذى يهيمن على ضعاف النفوس إذا صادف النجاح شـخص تربطهم به معرفة وكاد يختطفه بعيدا عنهم ليضعه فوق مرتبة أعلى ومكان أوفر حظا.

وضعت كل ذلك فى حساباتى بالإضافة إلى هذا الجمهور الكبير الذى جاء من كل الأقطار العربية لحضور هذا العرس الفنى.. غير أنى لم أكن أخشــى رأى اللجنة.. ربما عن ثقة ملأت نفسى من الإطراء الزائد الذى اســتمعت إليه في كواليس المســابقة.. وكذلك الثناء والإعجاب الشديد الذى كنت ألاقيه فى المحافل التى أديت بها.

حانت اللحظة الحاسمة ودعيت للوقوف بين يدى اللجنة المنعقدة.. وجمهور كبير يملأ القاعة.. وقد اصطفت الفرقة الموســيقية وبات المسرح مجهزًا ومعدًا للغناء.

وقفت على المســرح وأمســكت الميكروفون وبدأت الفرقة الموســيقية عزفهــا.. وبدأت أغنيتي.. ورويدا رويدا بــدأ تفاعل الجمهور مع لحن الأغنيــة.. ووصلت إلى أذنــى كلمات الإعجاب والمديح وســط التصفيق والتهليــل ممــا زاد من ثقتــى بفني وأدركــت أنى قد أجــدت الغناء وأحســنت الأداء.. فملت وتمايلت وطربت وأطربت.. واســتجاب معى جمهور القاعة بعدما تســلطنت مع كلمات الأغنية واندمجت مع لحنها حتى نســيت مكانى وزمانى وعشت لحظات من أحلى لحظات حياتى مع تفاعل الحضور وتشجيعهم المنقطع النظير.

انتهت الأغنية وسط تصفيق حاد واستحسان كبير فامتلأ قلبى فرحة وروحى بهجة وأملاً.. وانتظرت رأى اللجنة حتى تكتمل فرحتي وتكمل سعادتي وأنتقل للمرحلة التالية من المسابقة.

تحــدث كل عضو من أعضاء اللجنة وأســرد فى التفاصيل ناقدا تارة ومشــجعا تــارة أخرى.. حتى إنى شــعرت أن كل عضــو من أعضائها

يتخذ من مكانه منبرا لتقديم ذاته واستعراض ثقافته وتقديم نفسه كنجم النجوم.. حتى إنه في بعض الأحيان يصاحب تعليقاتهم بعض كلمات الاستظراف وربما استخدام بعض التعبيرات الجارحة.. وكأن من يقف أمامهـم حيوان تجارب استباحوا لأنفسهم إجراء عملياتهم وتجربة انتهاكاتهم علية دون أن يحرك ساكنا أو يشكو ظلمًا وقع عليه.

ظللت على هذه الحال أكثر من عشر دقائق مرت على وكأنها دهر كامل.. فقد أدركت أن الأمر ليس بالسهولة التى توقعتها وأن لجنة التحكيم ليس لديها مقياس موحد للحكم على المتسابقين.. وأنه ربما تأخذهم أهواؤهم الشخصية فى أحكامهم وقراراتهم .

حانت أخيرا اللحظة التي سوف تحدد مصيرى والتصويت على حياتى أو موتى.. فكلمة واحدة كانت كفيلة ببعث الروح أو نزعها من جسدى.. وبقدر ما كنت أنتظر قرار اللجنة ويجتاحنى الخوف وتلهث أنفاسى ويكاد قلبى يتوقف.. كان أعضاء اللجنة فى وادٍ آخر يتبادلون النكات والتعليقات والاستظراف أحيانا.. وكأن هذه المسابقة خصصت لإظهار مهاراتهم ومواهبهم ومدى ما يتمتعون به من ظرف وقدرة على التهكم.

بدأت اللجنة فى أخذ الأصوات واستطعت أن أحصل على الصوت الأول.. ثم حصلت على الصوت الثانى وسط فرحة أبناء بلدى وتشجيعهم.. وبدأ قلبى يتراقص فرحا مع اقتراب النتيجة لصالحى.. ولكن سرعان ما تنقلب الحال وتأتى الرياح بما لا تشتهى السفن..فقد صوت عضو اللجنة الثالث والرابع بالسلب.. وبذلك أكون وصلت إلى

مرحلة التعادل فى الأصوات فقد كسبت صوتين مقابل خسارة صوتين.. وبقى الصوت الخامس ليرجح أى الكفتين تميل.

كاد قلبى ينخلع وأنا أنتظر رصاصة الرحمة أن تنطلق لترحمنى من هذا العذاب الذى أعانيه.. وذلك الموقف الذى كاد يقضى عليَّ ما تبقى من أعصابى ويصيبنى بسكتة قلبية تودى بحياتى.

صمت تام خيم على الحضور فى القاعة وانتظر الجميع قرار العضو الخامس في اللجنة.. ورأيتها تنظر يمينا ويسارا وتتحدث بعض كلمات لم أسمع منها شيئا.. وتبادلت ضحكات مع باقى الأعضاء ولسان حالها يقول صوتى هو الأهم و الفيصل فى هذه الفقرة.. وتعالت الضحكات والقفشات.. بينما أنتظر القرار وأنا متصدع الروح مسلوب الإرادة يتمايل العالم من حولى يمينا ويسارا وتتأرجح الأشياء أمام عينى وقد كدت لا أرى شيئًا أمامى و طغت دقات قلبى حتى أصمت أذنى.. وهاج «الأدرينالين» ليذيب الأشياء أمام عينى ويملأ الخوف كيانى.

توجهت جميع الأنظار إلى العضو الخامس وهى تعلن قرارها وتطلق رصاصتها القاتلة لتنزع منى الحياة بانضمامها للأصوات الرافضة.. وأخسر الرهان.. وتصدر لجنة التحكيم حكمها بالفشل وتضع نهاية وحدا لآمالى وطموحاتى.

أسير مبتعدا عن المسرح.. أجر أذيال الخيبة والألم.. وقد تثاقلت قدماى وكأنهما جبل راسخ فى باطن الأرض.. ولا أدرى عن نفسى شيئا بعدما غيبت المفاجأة وعيى وحجبت عقلى.. وانتابنى بكاء عميق.. منعنى أن أستمع إلى كلمات المواساة ممن حولى ومحاولتهم تقليل وقع الصدمة والكارثة.

للمت أشيائي وغادرت بلد المسابقة ورجعت إلى مصر برفقة شقيقتي سـحر التي حاولت أن تخفف عني آثـار الصدمة وترفع من معنوياتي حتـى أتأهل للقاء الأهل والأصدقاء.. غير أنـي أيقنت أن ما حدث هو نهايتي.. وأن فشلي الذريع الذي شاهده العالم على الهواء مباشرة قد جعلني أضحوكة وقضى على أحلامي وطموحاتي للأبد.

حاول الأهل والأصدقاء مواسـاتي..ووقف الجميع بجانبي.. ورأيت في عيونهم نظرات الحب والمودة.. ومشـاركتي إحسـاسـي بالظلم أمام هـذه اللجنة التي كانت تحكم بالهوى بعيـدا عن كل المعايير الفنية.. وعمل الجميع على بث الثقة بنفسـي لاسـتكمال المشوار انتظارا لفرصة ثانية ربما قـد تتاح.. غير أني كنت قد اتخذت قراري بالابتعاد نهائيا عن دنيا الفـن والغناء.. ومحاولة إيجاد عمل بعيدا عن هذه المهنة التي دُمغـت فيها بالفشـل أمام الملايـين.. ووقعت شـهادة وفاتي من لجنة خماسية يفترض أنهم على قدر من العلم والمعرفة.

تمر الأيام و الشـهور وكدت أنسـي هذه التجربة المريرة خاصة بعد أن تركـت الغنـاء وانتقلت من المعهد الذي أدرس فيه إلى كلية أخرى لا تمت للفن بصلة وتبعد عنه كل البعد.. وقد بذلت سـحر معي محاولات مسـتميتة لتزيل آثار هذه التجربة وتعيدني إلى سيرتي الأولى.. وشاركها في ذلك أسـرتي وأصدقائي المقربون.. واسـتمرت محاولاتهم لتشجيعي ودعمي لمواصلة مشواري الفني وإثنائي عن موقفي الذي اتخذته لإيمانهم العميـق بموهبتي وقدراتي الفنية..غير أن جميع محاولاتهم ذهبت هباء أمام إصراري على موقفي وعدم تراجعي عنه.

استيقظت ذات يوم وشعور بطاقة من الأمل والتفاؤل تملأ نفسي.. وهدوء يلفني وراحة تنتابني.. كصفاء بحر بعد أمواج هادرة ضربته أياما طويلة.. وقضيت يومي صافي الذهن منتعش النفس حتى إني أخذت أدندن بعض الألحان التي كنت قد نسيتها منذ زمن طويل.

قمت بأخذ حمامي.. وبينما رذاذ الماء يتساقط على وجهي وكأنه يزيح حزنا وهما تراكم على مدى الأيام الماضية.. انطلقت أغني وأصدح بأعذب الألحان..حتى طربت وتمايلت مع كلمات الأغاني.. واستشعرت عذوبة وحلاوة هذا الصوت.... وهاتفني هاتف داخلي أن هذا هو انطلاقي الحقيقي.. فالنجاح يبدأ من الداخل وها أنا أوقن بنجاحي.. ولن أترك حياتي لقرارات لجان تصدر أحكامها بالفشل والنجاح.. ..فذاتي وموهبتي تقرران مصيري.. وأنا أشعر بهذه الموهبة وأعرف قدرها.. فقد اكتشفت نفسي منذ عهد بعيد وأنا أغني في هذا الحمام.. وها أنا أعاود اكتشاف نفسي والانطلاق من جديد من ذات الحمام لأحقق حلمي وهدفي بعيدا عن قرارات ورصاصات قاتلة تطلقها لجان.. ربما يغلبها الجهل أو تغلبها الأهواء.

«تمت»

المؤلف فى سطور

الكاتب / نصر سليمان محمد

أديب وكاتب حر فى عدة مواقع لصحف مصرية :-

- صحيفة اليوم السابع.
- صحيفة الشروق.
- صحيفة صدى البلد.
- صحيفة المساء.
- صحيفة صوت الحياة.
- صحيفة صوت الشارع.
- يعمل فى تحرير صحيفة قبس السعودية.
- عمل فى قناة العقارية بدبي.
- عمل فى صحيفة الرأي العام.
- عمل فى صحيفة الحياة.

الفهرس

	الصفحة
إهداء	٣
مقدمة	٤
الجزء الأول	٥
بداية بلا نهاية	٦
الفصل الأول	٧
الفصل الثانى	١٥
الفصل الثالث	٢٤
الفصل الرابع	٣٣
الفصل الخامس	٤٣
الجزء الثانى	٤٩
مارد الأسفلت	٥٠
رسالة شهيد	٦٧
الهروب	٨٥
رصاصة الرحمة	١٠١
التعريف بالكاتب	١٢٢

رقم الإيداع	٢٠١٤ / ٣٥٠٧
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7951-9

١ / ٢٠١٣ / ٢٠٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)